

الأَبَ سُهَيل قاشا

حكمة أحيقار وأثرها في الكتاب المقدّس

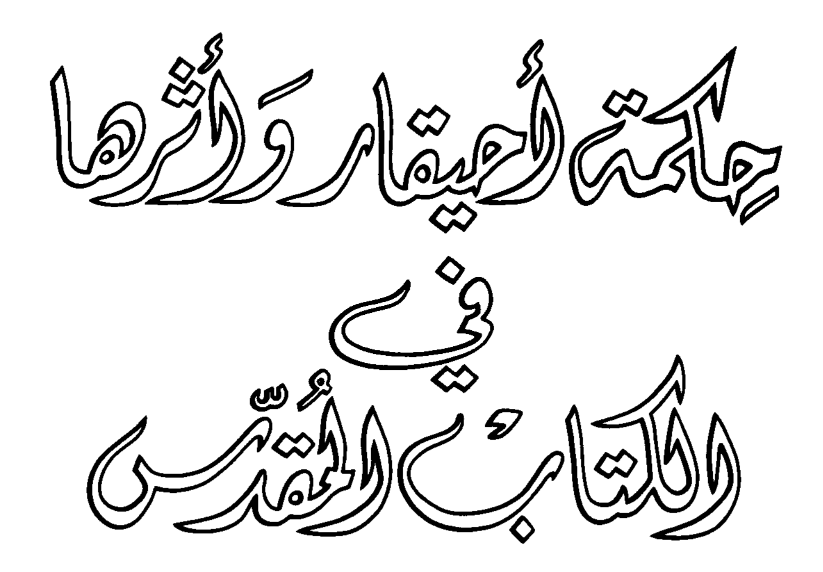


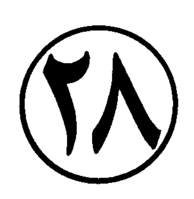


دار المشرق - بيروت



الأَب سُهَيل قاشا







لا مانع من طبعه

بولس باسيم
النائب الرسوليّ للاتين
بيروت ٢٨/٨/ ١٩٩٥

دار المشرق ش.م.م. ص.ب. ٩٤٦، بيروت - لبنان

ISBN 2-7214 - 4776-9

التوزيع: **المكتبة الشرقية**
ص.ب. ١٩٨٦، بيروت - لبنان

المقدّمة

تبحث هذه الصفحات في منشأ الحكمة وأصولها وأثرها في الكيان البشريّ على مرّ التاريخ، وهي جاءت لتفنِّد المقولة القديمة القائلة: «إنّ سفر الحكمة، وسفر الأمثال، وسفر يشوع بن سيراخ، وسفر الجامعة في كتاب **العهد القديم** من الكتاب المقدّس، أقدم نصوص حكميَّة تعليميَّة مدوّنة». والحقيقة أنّ ذلك شهادة زور على **العهد القديم**، إذ تبيَّن وبالتحقيق العلميّ الأكاديميّ الدقيق، أنّ الحكمة نبتت على ضفاف الرافدين ونمت وترعرعت حتّى امتدّت فروعها إلى الشعوب المجاورة وما بعدها، بدءًا بالسومريّين ومرورًا بالأكّديّين والبابليّين، وانتهاء بالأشّوريّين الذين في عهدهم أينعت الحكمة، وأزهرت على لسان «أحيقار» وزير الملك سنحاريب الأشّوريّ حكيم نينوى الذي نجد لحكمته أثرًا بيّنًا لدى سائر الأمم القديمة كاليونانيّين والعبرانيّين والمصريّين والآراميّين والعرب وغيرهم.

ولدينا من الدلائل ما يشير إلى أنّ مدوّني **العهد القديم** كانوا مطّلعين على الحكمة العراقيّة القديمة، ولا سيّما حكمة «أحيقار» حكيم البلاط الأشّوريّ وعاصمته نينوى، والتي منها اقتبسوا النصوص الحكميّة التعليميّة والتي جاءت متشابهة في أكثر من سفر. وأنّ اليهود الذين سباهم الأشّوريّون ونبوخذنصر بالسبي البابليّ، أدخلوا الكثير من النصوص العراقيّة القديمة في نصوص الأسفار التوراتيّة بعد تحويرها وتغييرها الموجّه، ثمّ توظيفها للتوحيد، أي عبادة الإله الواحد بطريقة تنظيفها من بقايا الوثنيّة المشركة.

تمهيد تاريخيّ

من المعروف أنّ وادي الرافدين مرّ بفترات عظم فيها الإيمان بوجود «حكماء»[1]. يوجّهون أعمال الملك وهم بمثابة مستشارين له. ويساهم هؤلاء الحكماء بشكل مباشر، وغير مباشر، في تعليم الأفراد والأمّة. في الوقت الذي هم قريبون من الملك والسلطة، يشيرون عليه بالنصيحة، ويرشدونه إلى خير الأمور وأحسنها. وهؤلاء الحكماء، أسهموا في تطوير المعارف الإنسانيّة خلال أجيال متعاقبة وطويلة.

لقد كان هؤلاء الحكماء، من المشمولين برعاية إلٰه المعرفة (آيا). ويسهمون في اختصاص هذا الإله الذي هو في الوقت نفسه إلٰه عالم المياه كلّها، هذا العالم الذي يعدّ - حسب معتقداتهم - أصل كلّ المعارف.

ويرد في أشعار «ايرا» وهو الإله المدمّر آله الطاعون وعالم جهنّم في معرض تهديده بابل ما تعريبه:

«أين هم إذن حكماء المياه السبعة؟ الأسماك النقيّة، التي كانت كأبيها «آيا» مفعمة بفهم عظيم»[2].

لقد كان هذا طابع الحكماء حتى أواخر فترات العهد البابليّ الحديث، وقد ذكرهم فيما بعد المؤرِّخ والعالِم البابليّ الشهير «بيروسوس»، الذي كتب تاريخ البابليّين في ثلاثة مجلدّات، باللغة اليونانيّة في القرن الثالث قبل الميلاد[3].

وممّا ذكره «بيروسوس» هذا، أنّ هناك الرجل السمكة، المسمّى أوانيس، قد خرج من البحر، ليعلم الرجال العناصر

---

(١) من المعروف عن فراعنة مصر وملوك فلسطين ورؤساء الآراميّين أنّهم قربوا مثل هؤلاء الحكماء. وتسمّي النصوص الحكيم باسم «أحيقار» التي قد تعني في ما تعنيه «أخا الكرم، أخا الوقار» ومثل شخصيّة «الأحيقار» كانت معروفة في بلاط الأشوريّين خلال القرن السابع قبل الميلاد. ويرد في واحد من نصوصهم المؤرّخة في فترة حكم الملك الأشوريّ «أسرحدون» اسم «أبو - نينو - داري» الذي يسمّيه الآراميّون بالأحيقار.

(٢) الدكتور وليد الجادر، أهمّيّة دراسة التراث الفكريّ في حضارة وادي الرافدين، مجلّة «آفاق عربيّة» بغداد (١٩٨٦) العدد السابع، ص ٦٦ وما بعدها.

(٣) عن شخصيّة المؤرّخ البابليّ «بيروسوس» (أنظر مجلّة كلّيّة الآداب، جامعة بغداد، العدد ٢٢ شباط ١٩٧٨، ص ٣٦٩-٣٧٠ ويرد اسم «بيروسوس» أيضًا باسم «برحوشا».

الأولى للحضارة. ويفصل بيروسوس المعارف التي كان من الواجب على هؤلاء الإحاطة بها ومنها:

«الإجادة التامّة للكتابة والعلوم والقوانين الاجتماعيّة المنظّمة للحياة اليوميّة، وفقه القوانين، والهندسة، وفنون تشييد المعابد، وتعليم الزراعة وما يخصّ البذور، والحصاد، وكلّ ما يتعلّق بالثقافة»(٤).

ولقد عرفت معظم المدن في وادي الرافدين حكماء كهؤلاء الحكماء السبعة. وكان ظهورهم بدفع إلهيّ من السماء، لإرشاد الملوك وتوجيههم لإنقاذ المدينة، والعالم، من شرور معيّنة، ولتوجيه الناس جميعًا نحو الطريق السليم، وقد سمّي البعض من هؤلاء الحكماء وسمّيت اختصاصاتهم الضيّقة والمحدّدة. فيذكر مثلًا اسم «نوبير كالديم» بأنّه كان حكيم الملك «أنيمكسار». ويذكر عن آخر اسمه «أور - كاتوم - دوكا» بأنّه كان حكيمًا ومنقبًا على مستوى عالميّ، وهو من مواليد مدينة «أور»(٥). ومن المعروف أنّ تأثيرهم كان واضحًا في تسيير أمور الحكم والدولة في التنبّؤ وتفسير المستقبل.

وفي الحقيقة، فإنّ الاهتمام بمثل هذه الظواهر، التي ترتبط بدون أدنى شكّ بالقضايا الفكريّة، والتفكير بالأحداث، والظواهر والحروب كان واسعًا. وكانت اهتمامات المفكّرين منتشرة على نطاق واسع حتى أن نسبت إحدى المدن إليهم. فقد كانت مدينة الحكمة «آل نيميكي» ومثل هذه الصفة التعظيميّة كانت معروفة بالنسبة لمدينة بابل قبلها. وكانت هاتان المدينتان بالذات من المراكز المرموقة والمعروفة عالميًّا وقتذاك بالعلم والمعرفة(٦).

وخلال العهد الأشوريّ والبابليّ، كان البعض من هؤلاء الحكماء يظهرون على المنحوتات البارزة على هيئة طيور وأسماك وهم في هذه الصور الرمزيّة المعروفة، يرتبطون بصورة أوضح بعالم «آيا»، وهو عالم الحياة. والمعروف أنّ القصائد البابليّة الشهيرة «العدالة الإلهيّة» المدوّنة في مدينة بابل في حدود نهايات الألف الثاني قبل الميلاد، ومن خلال النسخ المتأخّرة أو الحديثة التي تمّ العثور عليها في المكتبة الأشوريّة كانت بدايتها مديحًا مكرّسًا لسيّد الحكمة.

ومن المعروف، أنّ الأشوريّين ورثوا عن الأكديّين والسومريّين ما توصّلوا إليه من علوم وفنون وأدب وحكمة، وقد ترجم

---

(٤) د. وليد الجادر، المصدر السابق، ص ٦٧.

(٥) د. وليد الجادر، المصدر نفسه، ص ٦٧.

(٦) من محاضرة للدكتور وايزمن ألقاها في المؤتمر العالميّ الثاني للآثار والخاصّة ببابل وأشور وحمرين والذي عقد في بغداد خلال الفترة من ١-١٠ تشرين الأوّل ١٩٧٩.

التراث السومريّ إلى اللغة الأشوريّة، بينما انتقل إليها التراث الأكديّ بلغته الأكديّة.

فالحكمة الأشوريّة والحالة هذه، تمثّل كافّة أدوار التاريخ الخصب في ما بين النهرين، وسهل شنعار. وقد اكتشفت الآداب الحكميّة السومريّة مترجمة إلى الأكديّة والأشوريّة تحت أنقاض نينوى بين رقم خزائن أشوربانيبال، ونشرت بتحقيق الأثاريّين العلماء، رولنصون ولنغدون وميك وميسز. بالإضافة إلى ما نشر من رقم أكديّة وأشوريّة وجدت بين أنقاض باكزكوي (عاصمة الحثّيين) القديمة، ومن مدينة أشور ومدينة كالح (نمرود) تحتوي الأمثال الواردة على ألسنه الحيوانات، ويعود تاريخها إلى عهد سرجون الثاني ملك أشور. كما اكتشفت غيرها في مناطق مختلفة من المدن الأشوريّة المندرسة تعود إلى مختلف العهود الأشوريّة[٧].

هويّة أحيقار وقصّته

بعد هذا المدخل - الطويل - عن الحكمة الأشوريّة[٨]، التي في أجوائها عاش أحيقار الحكيم ومنها استقى، ولها أرفد، أجد أنّه من حقّنا الآن أن نعرف مَن هو أحيقار؟ وما خبره؟ وما أصل قصّته؟ وحقيقة أمره[٩].

مَن يكون أحيقار؟

قد يكون أسطورة، وقد يكون اسم شخص عاش فعلًا في زمن الملكين الأشوريّين سنحاريب (٧٠٤-٦١١ق.م) وابنه أسرحدون (٦٨٠-٦٦٩ق.م). وقد يكون لقبًا، أو صفة، أو رتبة رسميّة، أو مهنة، أو حرفة، أو درجة كهنوتيّة، أو شهادة علميّة أو أدبيّة. فالعظيم والعظمة يصبحان أسطورة حتمًا، شاء المؤرِّخون أم أبوا، لأنّ التاريخ ليس تسجيلًا وتصويرًا ونقلًا، بل «يبدأ التاريخ حين يبدأ الناس في التفكير بانقضاء الزمن، ليس بمعايير السياقات الطبيعيّة - دورة الفصول، أمد الحياة البشريّة - وإنّما بوصفه سلسلة من الأحداث المحدّدة التي ينخرط الناس فيها، بصورة واعية»[١٠].

إكتشف أقدم نصّ لقصّة أحيقار على أوراق البرديّ، ترجع إلى القرن الخامس

---

(٧) للتفصيل في حكمة العراق القديم راجع كتاب «أدب الحكمة البابليّة» للأستاذ غوردن وكتابنا «الحكمة في وادي الرافدين» بغداد، ١٩٨٣.

(٨) سهيل قاشا، الحكمة في وادي الرافدين، ص ٤٥ وما بعدها.

(٩) في نيّتنا نشر دراسة طويلة ومفصّلة عن أحيقار حكيم من نينوى، وهو مخطوطة جاهزة للطبع.

(١٠) أدوار كار، ما هو التاريخ، ترجمة ماهر كيالي وبيار عقل، بيروت (١٩٨٠) ص ١٥٤.

قبل الميلاد[11]. وهذا لا يعني طبعًا أنّه لم يكن ثمّة نصّ أقدم لم يسلم من الضياع، كما هو مصير العديد من النتاج الفكريّ والآثار الأخرى.

تقول القصّة أنّ أحيقار كان وزيرًا ومستشارًا لملك أشور ونينوى سنحاريب، وكان حكيمًا عظيمًا ذا مالٍ وفير، ومعرفة، ورأي وتدبير. لم ينجب. فتزوَّج عدّة نساء، ولكنّه بقي بدون وريث، فكان كثير الهمّ، استشار المنجّمين والعرّافين، فأشاروا عليه أن يذبح للآلهة، ويقوم بأفعال خير، ولكنّه لم ينل مبتغاه[12]. إلاّ أنه سمع صوت الإله يومًا يقول له: خذ نادان ابن أختك واجعله وريثك، علّمه علمك، ولقّنه حكمتك. فأخذ نادان، وكان بعد رضيعًا، واعتنى بأمره. ولما شبّ علّمه الكتابة والقراءة والأدب والفلسفة والعلوم. وبعد سنوات، كبر أحيقار وشاخ، فأشار عليه الملك أن يعيّن مَن يخلفه في منصبه. فأجابه أنّه قد اتّخذ من ابن أخته ولدًا، فأمره الملك بإحضاره. وعجب لأدبه وحكمته فوافق على تعيينه خلفًا لأحيقار. فأخذ خاله يبذل النصح له، ويطلعه على أسرار النجاح في مهمّته ساردًا له تجاربه في الحياة، فالتجربة خير معلّم. وتنازل أحيقار عن وظيفته وثروته العظيمة من أموال وممتلكات وعبيد، ولم يحتفظ لنفسه إلاّ بشيء يسير دلالة عن شدّة محبّته لنادان.

وتريد القصّة أن يخيّب نادان آمال خاله ومربّيه، فيضيّع الثروة ويتصرّف تصرّفات طائشة بحيث يضع خاله وأهله عرضة لتقولات شتى حتى يضطرّ أحيقار أن يعاقب نادان، ويستردّ الميراث، مانحًا إيّاه إلى الأخ الأصغر، فيحقد نادان على خاله، ويضمر له العداء ويدبّر خطّة للإيقاع به، فيلجأ إلى طريقة دنيئة، إذ يدسّ على أحيقار خطابين موقّعين باسمه: الأوّل موجّه إلى ملك الفرس، والثاني إلى فرعون مصر، يظهر أحيقار في كليهما خائنًا لوطنه وملكه، إذ يطلب من الملكين المجيء إلى بلاد آشور لكي يتسلّما المملكة بغير حرب. ويقع الخطابان في يدي الملك وفق الخطّة المرسومة، ويزوّر نادان خطابًا ثالثًا موجّهًا

(11) إكتشف النصّ الآراميّ هذا على أوراق البردي بين وثائق آراميّة كثيرة مشابهة له بيد البعثة الألمانيّة في جزيرة الفيلة بمصر سنة 1906 ويتألّف النصّ من إحدى عشرة صفحة ثلاث منها تحوي كلّ منها عمودين، والصفحات الأربع الأولى وهي - طبقًا لمّا رقّمها ساخو من 1-78 تحوي قصّة أحيقار نفسها، والباقية هي عشر صفحات وعشرة أعمدة من 79-223 تتناول أمثال أحيقار وحكمته الشهيرة، والنصّ خال من التاريخ، ولكن بعض الدلائل الماثلة استنتج العلماء أنّها من النصف الأخير من القرن الخامس قبل الميلاد، كما هي الحالة في بقيّة الوثائق المكتشفة في المكان والزمان نفسيهما. (راجع هذا التفصيل لدى المطران بولس بهنام، أحيقار الحكيم، بغداد، 1976، ص 29-30).

(12) وتضيف النصوص السريانيّة أنّه هجر الوثنيّة إلى عبادة الإله الواحد، ولم يرزق له ولد.

من قبل الملك إلى أحيقار يطلب إليه أن يجمع العساكر ويحضر في موقع معيّن، فيطيع أحيقار وتثبت التهمة عليه، ويتأكّد الملك هكذا من خيانته، فيصدر أمرًا بالقبض عليه وقطع رأسه. وتشاء الصدف أن يكون أحيقار قد أنقذ سابقًا الرجل الموكّل إليه أمر إعدامه، فيدبّر هو وامرأة أحيقار أمر نجاته وينفّذ الحكم بأحد المحكوم عليهم بالإعدام، بينما يختبئ أحيقار في مخبأ حديقة الدار لا يعلم به أحد.

تمرّ السنون ونادان مكان خاله مستشارًا للملك، لكنّه غير متّزن وضعيف الرأي، فيستغلّ ملك مصر - وكان فرعونها إذ ذاك ترهاقًا من الأسرة الخامسة والعشرين التي كان ملوكها من الحبشة - الفرصة لإحراج ملك آشور، فيبعث إليه مخبرًا يخيّره بين أمرين: إمّا أن يرسل مَن يبني له قصرًا في الهواء ويردّ على أسئلته، فتدفع له مصر الجزية ثلاث سنوات أو يعجز عن ذلك فيدفع الجزية لمصر. وإذ يجمع ملك آشور العلماء والحكماء والعرّافين ويعرض الأمر عليهم، يقرّ الجميع بعجزهم، ونادان أشدّ عجزًا منهم. فيغتمّ الملك غمًّا شديدًا، ويأسف على قتل أحيقار الحكيم، ويطول حزنه حتى يمْثُل السياف بين يديه ويصرخ بأنّه قد أبقى على حياة أحيقار اعترافًا له بالجميل، فيستدعيه الملك ويعرض عليه رسالة ملك مصر. فيعدّ أحيقار نسرين كبيرين وغلامين وشريطين طويلين من القطن طول كلّ منهما ألف ذراع، ويربط النسرين بالشريطين، ويدرّب الغلامين على الركوب على ظهر النسرين، ثمّ يطلقهما فيطيران في الجوّ على طول الشريط، فإذا وصلا الحدّ الأعلى صاح الغلامان: قدّموا لنا الحجارة والملاط لنبني البيت. فيخرج ملك مصر ومَن معه ويروا استحالة تلبية طلب الغلامين، فيعترف لأحيقار بالنصر. وينفّذ أحيقار ذلك بنجاح، وتستمرّ الألغاز بين فرعون وأحيقار والأخير ظافر فيعود أحيقار إلى بلاده معزّزًا مكرّمًا، مثقلًا بالهدايا، ويجري له استقبال حافل وكأنّه منقذ البلاد.

وينتقم أحيقار من نادان، فيربطه بسلسلة حديد، ويلقيه في مكان مظلم، ويؤنّبه بكلام بحكمة قاسية. وتقول القصّة إنّ نادان انتفخ حتى انفجر ميتًا.

وتأتي الخاتمة، وقد زادها على الكتاب أحد المؤلّفين المتأخّرين وقد يكون مسيحيًّا نظرًا إلى التعابير التي وردت فيها مثل «الخطيئة المميتة» و«ملكوت السماء» و«السعادة الأبديّة».

وفي هذه الخاتمة يذكر أنّ أحيقار كان وثنيًّا في البداية ثمّ آمن بالإله الواحد في نهاية حياته[١٣].

(١٣) البير أبونا، أدب اللغة الآرامية، ص ٣٥-٤٠.

أصل القصّة وانتشارها

يكاد يجمع مؤرّخو الأدب السريانيّ، ولاسيّما المستشرقون منهم، على اعتبار كتاب أحيقار هذا ترجمة آراميّة لنصّ غريب، ولهم في ذلك مبرّر، ليقينهم أنّ الآداب السريانيّة نبعت من الفكر المسيحيّ، وتبلورت في ميدان الجدل دفاعًا عن هذا الميدان. ولقد فاتهم أنّ الآراميّة كانت اللغة السائدة في الشرق في تلك الفترة بالذات، منتشرة من المتوسّط إلى الهند، وحتى في قلب أشور ونينوى وبابل، وفي الأوساط الشعبيّة كما وفي الدوائر الرسميّة، وأنّ ملوك أشور اتّخذوا دومًا وزراءهم وكتّابهم من الآراميّين - أليس أحيقار نفسه آراميًّا؟ - أو على الأقل من المتضلّعين من الآراميّة، وأنّهم أردفوا إلى نصوص رقمهم الأشوريّة نصًّا آراميًّا في سبيل نقل مضمونها إلى جميع الشعوب كافّة، وهي على علم بهذه اللغة.

ويذهب نفرٌ، حتّى من الشرقيّين الأصيلين - إلى أنّ القصّة آشوريّة المنبع، وهي بقيّة من أساطير نينوى وبابل، نقلت إلى اليهوديّة (العبريّة) أو إلى الآراميّة، باعتبار أسماء الآلهة المذكورة فيها بابليّة؛ أو أنّها آشوريّة الأصل.

ويتساءل آخر هل هي عبريّة المنشأ نقلت إلى اليونانيّة فأصبح بطلها أيسوبوس، لما ورد على لسانه من أمثال مشابهة ما لم يكن الأمر معكوسًا، أي أنّها نقلت من أصل يونانيّ إلى العبريّة بأسماء سامية آشوريّة، وهذا احتمال ضعيف جدًّا ومردود بنفس الوقت ومرفوض علميًّا ومنطقيًّا.

إنّ مَن يكبّ على دراسة نصّ «قصّة أحيقار» كما وصل إلينا، يتبيَّن له أنّ فيه قسمين:

الأوّل، ويضمّ النصائح والحكم والأمثال.

والثاني، وقد أقحم فيه الروايات والحكايات الغريبة المدهشة من طابع القصص الهنديّ الذي نجد له صدى في كتاب «كليلة ودمنة» من وضع الفيلسوف الهنديّ بيدبا، وكتاب «ألف ليلة وليلة» وقد تكون ألحقت فيما بعد بها.

كما يتّضح أنّ طريقة التفكير وأسلوب التعبير من خصائص الأدب الآراميّ السريانيّ القائم أصلًا على الوعظ والإرشاد. فضلًا عن أنّ أسماء بعض الآلهة التي وردت في النصّ أقرب إلى الآراميّة منها إلى الآشوريّة والبابليّة.

وعليه، فليس من المستبعد، بل يقرب من اليقين أن تكون قصّة أحيقار وحكمه وضعت أوّل ما وضعت بالآشوريّة، ثمّ دوّنت بالآراميّة السريانيّة، حلقة من حلقات التراث الأدبيّ في العالم القديم، وقد لاقت فيه وما بعده رواجًا لا

مثيل له.

ومن حسن الحظّ أن يكون طوبيّا البارّ قد أقام مدّة في نينوى حيث استمع ولا شكّ إلى أخبار أحيقار الكاتب في البلاط الملكيّ ونصائحه وإرشاداته وحكمه، فجاء سفره على كثير من توارد الحكم والمقاطع - كما سنرى - وقد ثبت أنّ هذا السفر وضع بالآراميّة في القرن الخامس قبل الميلاد[١٤]. فمال معظم النقّاد إلى جعل نصّ أحيقار الآراميّ معاصرًا له أو سابقًا بقليل. ومال بعضهم إلى اعتبار طوبيّا يهوديًّا نسيبًا لأحيقار، ويعزّز هذا الرأي ما ذكره سفر طوبيّا من علاقة النسب بين طوبيّا وأحيقار أوّلًا، وما عرف عن ديموقريطس الذي عاش في القرن نفسه، من أنّه ردّد في «أخلاقيّاته» بعض ما جاء في كتاب أحيقار من الحكم، ثانيًا.

هذا، فضلًا عمّا دوّن فيما بعد، في عدد من أسفار العهد القديم، كسفر دانيال النبيّ، الذي عاش في عهد قريب من أحيقار، وفي ظروف وبيئة شبيهة بظروفه وبيئته. وسفر يشوع بن سيراخ، أو سفر الحكمة الموضوع في منتصف القرن الثاني قبل الميلاد، وسفر الأمثال، وسفر الجامعة وسواها، وفي جميعها توارد في التفكير والتأليف، في التركيب والتعبير حتى وفي النص واللفظ، وفي الصف والترتيب. وهذا ما نرغب أن نبحثه هنا في مدى أثر «حكمة أحيقار في أسفار العهد القديم».

فلا غرو إذن والحالة هذه أن نرى اليهود الآخذين باللغة الآراميّة منذ ظهورهم يبالغون في اهتمامهم بأحيقار وحكمه وأمثاله، فيكثرون من نسخها ولاسيّما المتهلّنون منهم، ويحرصون على مخطوطاتها، حتى ويجلّونها محلّ كتابهم، كما حصل في الفيلة، حيث عثر عليها، دون سواها من النصوص اليهوديّة الدينيّة، ومن نسخة الفيلة هذه انطلقت الترجمات اللاحقة وعليها المعوّل في الدراسة الأوّليّة.

ولا عجب أن تكون الأوساط اليهوديّة، أينما حلّت، نهجت النهج نفسه، حتى راجت فيها أمثال أحيقار الحكيم، يتناقلها الناس أبًا عن جدّ، ويهتدون بها في حياتهم اليوميّة وهي نابعة من فلسفة الحياة العامّة، فتعلّق الأقوال في الأذهان، ويضرب صفحًا عن شخصيّة قائلها.

---

(١٤) فولوس غبريال، اللغة السريانيّة، الأدب والنحو، الجزء ٣ ص ١٠٠-١٠٧.

النصّ السريانيّ لقصّة أُحيقار الحكيم *

«بقوّة إلهيّة، سأكتب أمثال، أي قصّة أحيقار الحكيم كاتب سنحاريب ملك أشور ونينوى.

في السنة العشرين لملك سنحاريب ابن سرحدوم[1]، ملك آشور ونينوى كنت أنا أحيقار كاتب الملك. وقيل لي لما كنت ولدًا صغيرًا، أنّك لن ترزق ابنًا. أمّا الثروة التي كنت أملكها فقد كانت أعظم ممّا يستطيع المرء وصفه. تزوّجت ستّين امرأة[2]، وبنيت لهنّ ستّين قصرًا. ولكنّي لم أرزق ولدًا. فبنيت لي أنا أحيقار مذبحًا عظيمًا. كلّه من الخشب، وأوقدت فوقه النار، ووضعت عليه طعامًا طيّبًا وقدّمت ضحيّة رجاء صالح وقلت:

أيّها الربّ إلهي، إذا مت ولم أنجب ولدًا، ماذا سيقول الناس عنّي؟ سيقولون: إنّ أحيقار البارّ الصالح العادل، الصادق، تقي الله وخادمه مات ولم يترك ولدًا، ابنًا يتولّى دفنه[3]، ولا ابنة. وهذه مقتنياته وثروته ليس لها مَن يرثها من بعده كأنّه رجل حلّت عليه اللعنة. أضرع إليك اللهمّ أن ترزقني ابنًا ذكرًا ليرمي التراب على عيني يوم أموت.

ثمّ إنّي سمعت صوتًا يقول: يا أحيقار الكاتب الحكيم، لقد منحتك كلّ ما طلبت ونلته منّي، وأمّا إنّي لم أرزقك ابنًا فأمر

---

* عن النصّ الذي نشره المطران يوحنّا دولباني عن مخطوطة كيمبردج المرقّمة ٢٠٠٢ وقد نشره عام ١٩٦٢. وقد ترجم لي النصّ المرحوم والدي الشمّاس بطرس متي قاشا وقابلت الترجمة مع الترجمة التي وضعها الدكتور أنيس فريحة في كتابه «حكيم من الشرق» والترجمة الثانية التي وضعها المثلّث الرحمة المطران غريغوريوس بولس بهنام في كتابه «أحيقار الحكيم» وأشرت على مواضيع الاختلاف في الترجمات الثلاث.

(١) الاسم الأشوريّ الصحيح أسَرحَدّون. والمعروف أنّ سنحاريب هو ابن سرجون الثاني (٧٠٤-٦٨١ق.م) لا ابن أسرحدون. لأنّ أسرحدون هو ابن سنحاريب الذي ملك في غضون (٦٨١-٦٦٩ق.م). وفي القصّة خطأ تاريخيّ واضح، بينما النصّ الآراميّ القديم الذي نشره ساخو يسجّل هذه الناحية التاريخيّة بصورة صحيحة. وفي النصوص الأشوريّة يرد اسم أسرحدون كما سجّله النصّ الآراميّ لأسرحدون كما يرد في هذا النصّ.

(٢) عدد ستّين عدد كامل في الرياضيّات البابليّة الأشوريّة. وفي الأدب البابليّ الأشوريّ يشير العدد إلى كثرة كثيرة وليس من الضروريّ أن يؤخذ العدد حرفيًّا. كذلك الحال في الأدب العبريّ أو العبرانيّ، جاء في سفر نشيد الأناشيد (٦: ٧): «الملكات ستّون، والسراري ثمانون، والأبكار لا عدد لهنّ».

(٣) نجد هنا التوكيد على دفن الموتى. فقد كان القدماء يهتمّون بأمر دفنهم قبل الممات.

يجب أن تتقبّله (حرفيًا: فأمر يكفيك) فلا تقلق، وعليك ألاّ تنزعج. ولكن ها هو نادان ابن أختك سيصبح ابنًا لك، وعندما يكبر في القامة، يمكنك مع تربيته وتنشئته أن تعلّمه كلّ شيء.

وعندما سمعت هذا الكلام حزنت وقلت: أيّها الربّ الإله أتعطيني نادان ابن أختي ليكون لي ولدًا يرمي التراب على عيني يوم أموت؟ فلم ألق جوابًا.

فأطعت وصيّة الإله وأخذت نادان ابن أختي ولدًا لي. وبما أنّه كان لا يزال طفلًا فإنّي سلّمته لثماني مرضعات، وأطعمته العسل، وأجلسته على البساط الفاخر وألبسته الحرير والخزّ والأرجوان.

فنما ابني وتعالى، وامتدّت قامته كالأرز. ولمّا ترعرع وبلغ أشدّه، علّمته الكتابة ولقّنته الحكمة.

ولما عاد الملك من سفرة كان قد قام بها، دعاني إليه وقال لي: يا أحيقار الكاتب الحكيم، يا كاتم أسراري وصاحب مشورتي، عندما تشيب وتموت مَن سيخلفك في خدمتي ومشورتي؟

فأجبته قائلًا: عش إلى الأبد يا سيّدي الملك. لي ابن حكيم مثلي، قد حذق الكتابة والكتب والأدب. وعلى جانب كبير من العلم.

فقال لي الملك: أحضره إليّ فأراه. وإذا استطاع الوقوف أمامي فإنّي أطلقك بسلام، فتقضي شيخوختك بكرامة، إلى أن يوافيك الأجل.

عندئذ سرت بنادان ابني وأوقفته بحضرة الملك. فلمّا رآه سيّدي الملك قال: ليكن هذا اليوم مباركًا أمام الله. فكما سار أحيقار، سار أمام سرحدوم (هكذا) أبي فكوفيء، وكما سار أمامي، هكذا سيجازى نادان عندي الجزاء. فليخلد هو إلى الراحة، وسأقيمه على بابي إلى آخر أيّامه.

عندئذ سجدت أنا أحيقار للملك وقلت: ليعش مولاي الملك إلى الأبد. كما سرت أمام أبيك وأمامك إلى الآن، أرجو عطفك على حداثة سنّ ابني هذا، وطول أناة وصبر فيزداد عطفك الذي كنت تبديه نحوي أضعافًا نحوه.

وعندما سمع الملك هذا مدّ يمينه نحوي وأعطاني يمين العهد، فانحنيت له تكريمًا. ولم أكن أنقطع عن تعليم ابني فأشبعته العلم والحكمة، كما أشبعته الخبز والماء. وكنت أقول له:

١ - [٤]إسمع يا بنيّ نادان وافهم كلامي، واعتبر نصائحي، واذكر كلامي، ذكرك كلام الإله ونصائحه.

٢ - يا بنيّ نادان، إن سمعت كلمة فاتركها تموت في قلبك، ولا تبح بها

(٤) لقد أثبتنا هذا الترقيم، طبقًا للترقيم الذي جاء في النصّ السريانيّ الذي عنه أخذنا الترجمة، وليس في الأصل، إنّما من وضع الناشر للنصّ أوّلًا.

لإنسان لئلاّ تصير جمرة في فمك فتكويك، وتترك وصمة في نفسك، ويغضب الله عليك، فتكون مكروهًا في الأرض وتجدّف على الإله.

٣ - يا بنيّ، لا تبح بكلّ ما تسمع، ولا تقل شيئًا عن كلّ ما تراه.

٤ - يا بنيّ، لا تحلّ عقدة ربطت ولا تعقد عقدة حلّت.

٥ - يا بنيّ، لا ترفع عينيك إلى امرأة متبرّجة متكحّلة، ولا تشتهيها بقلبك. فإنّك إن أعطيتها كلّ ما ملكت يديك لن تجد فيها خيرًا وتقترف اثمًا أمام الله.

٦ - يا بنيّ، لا تزن بامرأة صاحبك لئلاّ يزني آخرون بامرأتك.

٧ - يا بنيّ، لا تكن عجولًا متسرّعًا كشجرة اللوز تزهر قبل كلّ الأشجار، ويوكل ثمرها بعدها جميعًا. بل كن سويًّا عاقلًا هادئًا متأنّيًا كشجرة التوت، فإنّها تورق آخر الأشجار، ولكن ثمرها يسبق كلّ الأثمار.

٨ - يا بنيّ، طأطئ عينيك إلى أسفل، واخفض صوتك، وانظر إلى تحت باحتشام، لأنّه لو كان المرء يستطيع أن يبني بيتًا بالصوت العالي المرتفع لبنى الحمار بيتين في يوم واحد. ولو أنّ القوّة الشديدة (وحدها) هي التي تجرّ المحراث لما فارق النير منكب الجمل.

٩ - يا بنيّ، نقل الحجارة مع رجل حكيم أفضل من شرب الخمرة مع رجل جاهل.

١٠- يا بنيّ، اسكب خمرك على قبور الصالحين، ولا تشربه مع الأثمّة.

١١- يا بنيّ، إنّك لن تضلّ إذا عاشرت حكيمًا، ومع الضالّ لن تتعلّم الحكمة.

١٢- يا بنيّ، عاشر الحكيم تصبح حكيمًا مثله، ولا تعاشر طويل اللسان والمهذار لئلاّ تحسب نظيره.

١٣- يا بنيّ، إذا كنت متعلًا، دسّ الشوك برجليك ومهّد الطريق لبنيك وبني بنيك.

١٤- يا بنيّ، يأكل ابن الغنيّ حيّة فيقول الناس: للشفاء أكلها ويأكلها ابن الفقير فيقول الناس: من جوعه أكلها.

١٥- يا بنيّ، كل نصيبك ولا تهزأ بجارك (ولا تقتحم نصيب إقرانك).

١٦- يا بنيّ، حتى الخبز مع قليل الحياء لا تأكل.

١٧- يا بنيّ، لا تغتم لخير يناله مبغضك، ولا تفرح لشرّ يصيبه.

١٨- يا بنيّ، لا تقرب امرأة مهذارة، ولا امرأة صخابة.

١٩- يا بنيّ، لا يغرينك جمال المرأة، ولا تشتهها بقلبك، لأنّ جمال المرأة طعمها، وبهاؤها حلاوة كلامها.

٢٠- يا بنيّ، إذا جابهك عدوّك بالشرّ فجابهه أنت بالحكمة.

٢١- يا بنيّ، إنّ الأثيم يسقط ولا ينهض، والبارّ لا يتزعزع لأنّ الله معه.

٢٢- يا بنيّ، لا تحرم ابنك من الضرب (التأديب) لأنّ الضرب للصبيّ كالسماد للبستان، وكالرسن للحمار، وكاللجام للبهائم، وكالقيد في رجل الحمار.

٢٣- يا بنيّ، اخضع ابنك ما دام طفلًا صغيرًا، قبل أن يفوقك قوّة وشدّة، ويتمرَّد عليك فتخجل في مساوئه ومن كلّ أعمال السوء التي يعملها.

٢٤- يا بنيّ، اقتن ثورًا يربض، وحمارًا ذا حوافر، ولا تقتن عبدًا آبقًا ولا أمّة لصّة كي يفقداك ما تملكه يدك.

٢٥- يا بنيّ، إنّ كلام الكذّاب كعصافير الدوري السمينة، وعديم الحكمة يأكلها.

٢٦- يا بنيّ، لا تجلب عليك لعنة أبيك وأمّك، لئلاّ تحرم الفرح بنعم بنيك.

٢٧- يا بني، لا تسرْ في الطريق بدون سلاح لأنّك لست تدري متى يلقاك أو يقابلك عدوّك.

٢٨- يا بنيّ، كما أنّ الشجرة مزدانة بأغصانها وثمرها، وكما يزهو الجبل باحتباك أشجاره، هكذا يزدان الرجل بزوجته وبنيه. والرجل الذي ليس له زوجة ولا إخوة ولا بنون محتقر ومهان بين أعدائه. إنّه يشبه شجرة على قارعة الطريق، كلّ عابر يستبيحها، وكلّ حيوان البرّ يقضم أوراقها.

٢٩- يا بنيّ، لا تقل سيّدي جاهل وغبيّ، وأنا عاقل حكيم، بل امسكه متلبسًا بأخطائه ومساوئه تنل رحمة ورضى (منه) فتتسامى.

٣٠- يا بنيّ، لا تحسب نفسك حكيمًا عاقلًا والناس لا يحسبونك كذلك.

٣١- يا بنيّ، لا تكذب أمام سيّدك بكلامك، لئلاّ تحتقر ويقول لك: إليك عنّي، واغرب عن وجهي.

٣٢- يا بنيّ، ليكن كلامك صادقًا، ليقول لك سيّدك اقترب منّي فتحيا.

٣٣- يا بنيّ، لا تجدّف على الله يوم محنتك (مصيبتك وبؤسك) لئلاّ يغضب عليك حين يسمعك.

٣٤- يا بنيّ، لا تفضّل عبدًا من عبيدك على صاحبه، فإنّك لست تدري أيّهم ستحتاج إليه آخر الأمر.

٣٥- يا بنيّ، ارم حجارة على الكلب الذي ترك صاحبه وتبعك.

٣٦- يا بنيّ، إنّ القطيع المبدّد الذي يسلك مسالك عديدة في الفلوات يصبح فريسة (نصيب) الذئاب.

٣٧- يا بنيّ، كن عادلًا بأحكامك في شبابك تنل كرامة ووقارًا في شيخوختك.

٣٨- يا بنيّ، اجعل لسانك حلوًا، وكلامك عذبًا فإنّ ذنب (الكلب يطعمه خبزًا، و(فتح) فمه يكسبه رجمًا).

٣٩- يا بنيّ، لا تدع صاحبك يدوس على رجلك لئلاّ يدوس رقبتك.

٤٠- يا بنيّ، اصفح العاقل بكلمة حكيمة فتكون في قلبه كالحمّى في الصيف. وإن ضربت الجاهل عصيًا كثيرة فلن يشعر.

٤١- يا بنيّ، ارسل الحكيم ولا تكرّر عليه التوجيه والتوصية، وإذا كان لا بدّ من إرسال جاهل، فالأفضل أن تذهب أنت بنفسك.

٤٢- يا بنيّ، اختبر ابنك بالخبز والماء، عندها يمكنك ائتمانه على ثروتك وأموالك.

٤٣- يا بنيّ، كن أوّل مَن يقوم على الوليمة، ولا تنتظر تناول الدهائن اللذيذة، ولا تستمرّ في شرب اللذائذ الساخنة لئلاّ تصاب بجراح في رأسك.

٤٤- يا بنيّ، مَن كانت يده ملآنة يدعى حكيمًا ومحترمًا، ومَن كانت يده فارغة سمّاه الناس مذنبًا ووضيعًا.

٤٥- يا بنيّ، إنّي حملت الملح، ونقلت الرصاص، فلم أجد أثقل من الدَيْن المستحقّ، فليف الإنسان ولا يقترض.

٤٦- يا بنيّ، حملت الحديد، ونقلت الصخور، فلم أجد أثقل من ثقل الرجل الذي يسكن في بيت حميه.

٤٧- يا بنيّ، علّم ابنك الجوع والعطش ليدبّر بيته برويّة.

٤٨- يا بنيّ، أعمى العينين أفضل من أعمى القلب، لأنّ أعمى العينين يتعلّم طريقه سريعًا فيسلكه، وأمّا أعمى القلب فإنّه يحيد عن الطريق المستقيم، ويهيم في الصحراء فيتيه في الظلال.

٤٩- يا بنيّ، الصديق خير من أخ بعيد، والصيت الحسن خير من الجمال الوافر، لأنّ الصيت الحسن يدوم إلى الأبد، وأمّا الجمال فيذبل ويزول.

٥٠- يا بنيّ، إنّ الموت خير لرجل لا راحة له في الحياة، وصوت العويل والنحيب والندب في أذني الجاهل أفضل من صوت المزمار والغناء وأهازيج الفرح.

٥١- يا بنيّ، إنّ الكراع في يدك لأفضل من الفخذ في قدر غيرك، وشاة قريبة خير من بقرة بعيدة، وعصفور واحد في يد خير من ألف عصفور طائر، والفقر الذي يوفّر خير من الغنى الذي يبذّر، ورداء من صوف تلبسه أفضل من الحرير والخزّ والأرجوان الذي يرتديه الآخرون.

٥٢- يا بنيّ، احفظ الكلام في قلبك أفضل لك، لأنّك إذا بدّلت كلامك تخسر صديقك.

٥٣- يا بنيّ، لا تطلق الكلمة من فمك حتى تروزها في عقلك (حرفيًّا: قلبك) لأنّه خير للرجل أن يعثر في قلبه من أن يعثر بلسانه.

٥٤- يا بنيّ، إذا سمعت كلمة سوء فادفنها في الأرض على عمق سبعة أذرع.

٥٥- يا بنيّ، جانب قومًا يتخاصمون، لأنّ من الخصام ينتج القتل.

٥٦- يا بنيّ، كلّ مَن لا يقضي قضاء عادلًا يغضب الربّ.

٥٧- يا بنيّ، ابتعد عن صديق أبيك، لئلاّ صديقك يومًا ما لا يقترب إليك.

٥٨- يا بنيّ، لا تدخل (حرفيًّا: لا تنزل) إلى بستان العظماء ولا تقترب من بنات الكبراء.

٥٩- يا بنيّ، حام صديقك أمام السلطان، لكي يمكنك أن تحاميه أمام الأسد.

٦٠- يا بنيّ، لا تفرح إذا مات عدوّك.

٦١- يا بنيّ، عندما ترى رجلًا أشدّ منك بطشًا قم من أمام وجهه.

٦٢- يا بنيّ، إذا وقف الماء بدون أرض (تسنده) أو طار طائر بدون جناح، أو ابيّض

الغراب كالثلج، أو حلي المرّ كالعسل (عندما تحدث هذه الأمور جميعها) يصير الجاهل حكيمًا.

٦٣- يا بنيّ، إذا صرت كاهنًا لله فاحترس واتّقه، وقف بحضرته طاهرًا نقيًّا، ولا تنصرف من أمام وجهه.

٦٤- يا بنيّ، مَن أنعم الله عليه فاحترمه أنت أيضًا.

٦٥- يا بنيّ، لا تقاوم رجلًا في أوج عزّه (حرفيًّا: في يومه) ولا تناصر النهر في طغيانه.

٦٦- يا بنيّ، إنّ عين الإنسان هي كنبع ماء، لا تشبع من الأموال حتى تمتلئ بالتراب.

٦٧- يا بنيّ، إذا أردت أن تكون حكيمًا فامنع فمك عن الكذب، ويدك عن السرقة، بذا تصبح حكيمًا.

٦٨- يا بنيّ، لا تتدخّل في زواج امرأة، فإنّه إذا شقيت (في زواجها) لعنتك، وإذا سعدت وسرّت ونجحت فإنّها لن تذكرك.

٦٩- يا بنيّ، بهيّ الثياب مقبول الكلام وحقيرها مرفوضه.

٧٠- يا بنيّ، إذا لقيت لقية أمام صنم فقدّم له منها حصّته.

٧١- يا بنيّ، إنّ اليد التي شبعت بعد جوع لا تجود، وكذلك اليد التي جاعت بعد شبع.

٧٢- يا بنيّ، لا تنظر عيناك جمال امرأة، ولا ترنُ إلى جمال ليس لك، لأنّ كثيرين هلكوا بجمال امرأة وحبّها كالنار اللاهبة.

٧٣- يا بنيّ، خير لك أن يضربك العاقل الحكيم عصيًا كثيرة، من أن يدهنك الجاهل بطيب معطّر.

٧٤- يا بنيّ، لا تركض رجلك وراء صاحبك، ولا تدعه يشبع منك فيبغضك[٥].

٧٥- يا بنيّ، لا تضع أسوارًا ذهبيًّا في يدك وأنت معدم لئلاّ يسخر منك الجهال[٦].

هذا هو التعليم الذي علّمه أحيقار لابن أخته نادان.

أمّا أنا أحيقار، فقد ظننت أنّ كلّ ما علّمته لنادان قد لصق بقلبه، فيخلفني في باب الملك. ولم أدرك بأنّ نادان لم يصغِ إلى كلماتي، بل تركها تعصف الريح بها. ويعود ويقول: إنّ أحيقار أبي قد شاخ وهو على حافّة قبره، وقد اختلت معرفته، وضئلت حكمته.

ثمّ إنّ نادان ابني أخذ يسيء إلى عبيدي ويضربهم ويذبح الذبائح، ويبدّد ولا يعطف على عبيدي وأمائي النشيطين والمحبوبين جدًّا، وقتل خيلي وقطع عراقيب بغالي القويّة.

ولمّا رأيت أنّ نادان تمادى في عبثه

---

(٥) وقد ترجمها المطران بولس بهنام: «يا بنيّ لا تكثر من زيارة صديقك لئلاّ يملّك فيشناك».

(٦) ترجمها المطران بولس بهنام: «لا تضع خاتم ذهب في أصبعك وأنت خالي الوفاض لئلاّ يزدريك».

هذا قلت له: يا بنيّ نادان، لا تقرب أموالي. فقد قيل في الأمثال «حيث لم تجن اليد لا ترحم العين».

ثمّ أخبرت مولاي سنحاريب هذه الأمور كلّها فأجابني قائلًا: ما دام أحيقار، فإنّ أحدًا من الناس لن يستولي على ممتلكاته.

بعد ذلك رأى نادان ابني أخاه نبوزردان قائمًا في بيتي.

حينئذ لمّا رأى نادان ابني أخاه نبوزردان في بيتي، اغتاض جدًّا، وقال: إنّ أحيقار أبي قد شاخ فضحلت (حرفيًّا: قلّت) حكمته وأخذ يستخفّ بكلماته الحكيمة (وقال في نفسه): قد تفهّمت كلماته الحكيمة، وأخشى يعطي ثروته لأخي نبوزردان ويطردني من بيته.

ولمّا سمعت أنا أحيقار هذا الكلام، قلت في نفسي: ويحك يا حكمتي، فقد ظنّك ابني نادان تفاهة، واعتبر كلماتي الحكيمة فارغة وأقوالي استخفّ بها.

وعندما سمع ابني نادان ذلك، غضب، وذهب إلى باب الملك مضمرًا الشرّ في قلبه. فجلس وكتب رسالتين إلى ملكين من أعداء سيّدي سنحاريب.

الأولى إلى أخي (أغيش) ابن حمسليم ملك فارس وعيلام وقال: «من أحيقار الكاتب وحامل أختام سنحاريب ملك أشور ونينوى، سلام. إذا وصلت إليك هذه الرسالة، بادر ولاقني في أشور، وأنا أدخلك آشور فتستولي عليها بدون حرب».

وكتب رسالة ثانية إلى فرعون مصر (هذا نصّها): «من أحيقار الكاتب وحامل أختام ملك أشور ونينوى، سلام. إذا وصلت إليك رسالتي هذه، انهض وتعال لمقابلتي في بقعة النسور (نسرين) التي تقع إلى الجنوب، في اليوم الخامس والعشرين من شهر آب. وأنا أدخلك إلى نينوى فتستولي عليها بدون حرب».

وقد جعل خطّه مثل خطّي، وختمها بختم الملك.

ثمّ إنّه كتب رسالة أخرى لي كأنّها موجّهة إليّ من سيّدي الملك سنحاريب هذا نصّها: «من سنحاريب الملك إلى أحيقار كاتبي وحامل أختامي، سلام. عندما تصلك رسالتي هذه اجمع جميع قوّاتك في الجبل المسمّى حسص، ومن هناك وافني إلى بقعة نسرين الواقعة إلى الجنوب في الخامس والعشرين من شهر آب. ومتى رأيتني أقترب منك صف جنودك وكأنّك تتهيّأ لدخول معركة. وذلك لأنّ رسلًا من فرعون مصر قد جاؤوا ليروا ما عندي من قوّة».

وأرسل ابني نادان هذه الرسالة إليّ بواسطة اثنين من خدّام الملك.

وأخذ نادان الرسالتين اللتين كتبهما كأنّه عثر عليهما عثورًا، وقرأهما أمام الملك.

ولمّا سمع سيّدي الملك ذلك ولول قائلًا: يا إلهي بما أخطأت نحو أحيقار؟ وماذا جنيت عليه؟ حتّى يصنع معي هذا

الأمر ويكيل لي هذا الجزاء؟

فأجاب نادان ابني وقال: لا تغتمّ ولا تغضب يا سيّدي الملك؛ هيّا بنا لنذهب إلى بقعة نسرين في اليوم المعيّن في الرسالة، وإذا صحّ الأمر فليكن ما تأمر به.

واصطحب نادان ابني الملك سيّدي وأتيا إلى بقعة نسرين، فوجداني ومعي جيش عظيم محتشد هناك.

ولمّا رأيت الملك هيّأت جنودي للحرب طبقًا لما ورد في الرسالة.

وإذ رأى الملك هذا خاف خوفًا عظيمًا.

فقال له ابني نادان: لا تخف يا سيّدي الملك، عد إلى خيمتك بسلام، وأنا أجلب أحيقار إليك.

حينئذ عاد سيّدي الملك إلى خيمته.

فجاء إليّ نادان ابني وقال: إنّ جميع ما فعلته حسن، وقد مدحك الملك كثيرًا. ويأمرك بأن تصرف الجنود كلًّا إلى بيته وإلى داره. وأنت تعالى وحدك إليّ.

ثمّ مثّلت أمام الملك، ولمّا رآني قال لي: هل أتيت يا أحيقار كاتبي وربيب نعمة أشور ونينوى. يا مَن رفعت شأنه إلى مقام الكرامة فانقلبت وأصبحت من أعدائي.

ثمّ إنّه دفع إليّ الرسائل المكتوبة باسمي، والمختومة بختمي.

وعندما قرأتها تلعثم لساني وارتخت مفاصلي وحاولت أن أجد كلمة واحدة من كلمات الحكمة فلم أوفّق إلى واحدة منها.

فقال لي ابني نادان: أغرب من وجه الملك أيّها الشيخ الأحمق، وهات للقيود يديك، ورجليك لإصفاد الحديد.

ثمّ إنّ سنحاريب الملك أشاح بوجهه عنّي وتكلّم مع نبوسمك مسكين زميلي وقال له: قم اذهب واقتل أحيقار وافصل رأسه عن جسمه مسافة مئة ذراع.

عندئذ سقطت على وجهي إلى الأرض وسجدت للملك وقلت: عش إلى الأبد يا سيّدي الملك، وطالما شئمت قتلي، وبما أنّك قد قضيت بقتلي فليكن كأمرك وكإرادتك، وأنا متأكّد أنّي لم أسئ إليك ولم أخطأ. إنّما مر يا سيّدي الملك أن يقتلوني أمام باب بيتي ويعطوا جسدي ليدفن.

فقال الملك لنبوسمك مسكين زميلي: إذهب واقتل أحيقار أمام باب داره واعط جسده ليدفن.

حينئذ، أنا أحيقار أرسلت إلى أشفغني زوجتي، وطلبت إليها أن تحضر مع بنات عشيرتي ألف صبيّة ويلبسن لباس الحداد، ويولولن ويبكين عليّ، ويزحفن إلى بابي، وليقمن مناحة قبل موتي. وطلبت إليها أن تعدّ وليمة للطعام والشراب لنبوسمك مسكين زميلي ولجماعته من الجنود الذين معه. وقلت لها: أخرجي لملاقاتهم واستقبليهم وادخليهم إلى دارعي، وأدخل أنا كضيف.

وكانت زوجتي أشفغني حكيمة جدًّا، ففهمت كلّ رغبتي وأعدّت كلّ ما طلبت إليها إعداده، وخرجت تستقبلهم فأدخلتهم

داري فتناولوا الطعام، وكانت تخدمهم بذاتها حتى استلقوا في أماكنهم نائمين من شدّة سكرهم.

ثمّ أنا أحيقار دخلت وقلت لنبوسمك مسكين: إرفع بنظرك إلى السماء أيّها الأخ، واذكر المحبّة والصداقة التي بيننا. لا تحزن لموتي، ولا تسبّب موتي. واذكر أنّ الملك أسرحدون أبا سنحاريب أسلمك يومًا إليّ لكي أقتلك فلم أقتلك لأنّي عرفتك بريئًا واستخفيتك حتّى طلبك الملك. وعندما أحضرتك أمامه أعطاني عطايا ثمينة، ونلت منه هدايا كثيرة. وأنت الآن أيضًا أبقني حيًّا وردّ إليّ ذلك الجميل. ولئلاّ ينتشر الخبر بأنّي لم أقتل فيعابك الملك. هوّذا في السجن عندي عبد اسمه منزيفر محكوم عليه بالموت. فالبس ثيابي العبد وأيقظ عليه الجنود فيقتلونه، وأمّا أنا فلا أموت لأنّي لم أسئ، ولم أعمل ما يستوجب موتي.

ولمّا قلت هذا ونبوسمك مسكين زميلي أيضًا حزن عليّ كثيرًا وأخذ ثيابي وألبسها العبد الذي في السجن وأيقظ الجنود، فنهضوا، ولم تزل الخمرة تلعب برؤوسهم وقتلوه وفصلوا رأسه عن جثّته مئة ذراع، ورفعوا جثّته فدفنت.

فذاع في أشور ونينوى أنّ أحيقار الكاتب قتل.

ثمّ إنّ نبوسمك مسكين وزوجتي أشفغني صنعا لي مخبأ تحت الأرض عرضه ثلاثة أذرع وعلوّه خمسة تحت عتبة باب داري. ووضعوا لي خبزًا وماء، وذهبوا فأكّدوا لسنحاريب الملك، أنّ أحيقار الكاتب مات.

ولمّا سمعوا الرجال ناحوا عليّ والنساء مزقّن عليّ وجوههنّ وولولن قائلات: واأسفاه عليك يا أحيقار الكاتب العظيم الحكيم، يا مقيل عثرات بلادنا، لن يقوم بيننا مثلك إلى الأبد.

حينئذ، دعا سنحاريب الملك ابني نادان وقال له: إذهب واقم مناحة ومأتمًا لأحيقار أبيك، ثمّ عد إليّ.

ولمّا جاء نادان ابني، لم يعمل مناحة ولا مأتمًا، ولم يذكرني، بل جمع الرعاع والسفهاء وأجلسهم على مائدتي على صوت الغناء والفرح العظيم.

أمّا عبيدي الطيّبين وأمائي المحبوبين فإنّه كان يجرّدهنّ من ثيابهنّ ويجلدهنّ بدون رحمة. ولم يحترم زوجتي أشفغني بل راودها عن نفسها. وأنا أحيقار كنت ملقى في الظلام في أعماق الجبّ أسمع أصوات خبّازي وطهاتي وسقاتي، يبكون وينوحون في بيتي.

وبعد أيّام قليلة أتى نبوسمك مسكين زميلي وفتح مخبأي (حرفيًّا: عن وجهي) وطيّب خاطري ووضع أمامي خبزًا وماء. فقلت له: عندما تخرج من لدني اذكرني أمام الله وقل له:

أيّها الإله الصالح العادل، صانع الجود على الأرض. إسمع صوت أحيقار عبدك. واذكر أنّه قدّم لك ذبائح عجولًا

مسمّنة، وحملان الحليب. ها هو الآن ملقى في جبّ مظلم حيث لا يرى نور النهار. ألست أنت تخلص مَن يدعوك؟ اسمع يا ربّي دعاء زميلي.

ولمّا سمع فرعون ملك مصر أنّي أنا أحيقار قتلت، فرح فرحًا شديدًا، وكتب رسالة إلى سنحاريب هذا نصّها:

من فرعون ملك مصر إلى سنحاريب ملك أشور ونينوى، سلام.

إنّي أبغي بناء قصر بين السماء والأرض فتفضّل وارسل إليّ رجلًا بناء حكيمًا، يستطيع أن يجيب عن كلّ مسألة أسأله عنها. وإذا بعثت إليّ برجل كهذا فإنّي أقدّم غلّات مصر (جزية) لمدّة ثلاث سنوات وأبعث بها إليك. أمّا إذا كنت لا تستطيع أن ترسل إليّ رجلًا يجيب عمّا أسأله عنه فإنّك ستجمع غلّات أشور ونينوى لمدّة ثلاث سنوات وتبعث بها إليّ بأيدي الرسل الذين سأرسلهم إليك[٧].

وعندما قرئت هذه الرسالة في حضرة الملك دعا جميع نبلاء مملكته وكلّ أشرافها وقال لهم[٨]: مَن منكم يذهب إلىَ مصر ليجيب الملك عمّا يسأله؟ ويبني له القصر الذي طلبه ويجلب جزية مصر لثلاث سنوات ويعود؟[٩].

ولمّا سمع النبلاء والعظماء قالوا: تعلم يا سيّدنا الملك أنّ المشكلات مثل هذه ليس في عهدك فحسب بل في عهد أبيك أسرحدون كان أحيقار الكاتب يحلّها، والآن أيضًا هوّذا ابنه وهو أيضًا متعلّم أدبه وحكمته.

وعندما سمع نادان ابني هذا الكلام صرخ بحضرة الملك وقال: إنّ الآلهة نفسها لا تستطيع أن تفعل أمورًا كهذه فكيف بالبشر؟[١٠].

ولمّا سمع الملك ذلك اغتمّ كثيرًا، ونزل عن عرشه وجلس على الأرض[١١]، وقال: «واأسفاه عليك يا أحيقار الحكيم إنّي فقدتك بسعاية صبي فمَن يعيدك إليّ الآن فأعطيه ثقلك ذهبًا»[١٢].

---

(٧) من الأمور المستحبّة في قصص القدماء التعجيز وجواب فيه تعجيز مضاد. كذلك الأحاجي فإنّها موضوع آخر مستحبّ.

(٨) القصّة هنا تشبه قصّة نبوخذنصر عندما حلم ليلًا حلمًا أزعجه ولم يستطع السحرة والمنجّمون تفسيره (راجع دانيال الفصل الثاني ودانيال ٤: ٤، ٥: ٧).

(٩) الأحاجي وضروب التعجيز بين الملوك من الأمور التي يكثر ورودها في القصص القديمة. فإنّ بلقيس ملكة اليمن مثلًا تعجّز سليمان باحاج منها سؤالها له عن «ماء روي ليس من الأرض ولا من السماء» فيجيبها سليمان: إنّه عرق الخيل. (الثعلبي. قصص الأنبياء ص ١٧٨ طبعة القاهرة).

(١٠) شبيه بما جاء في سفر دانيال ٢: ١١.

(١١) أنظر سفر يونان ٣: ٦.

(١٢) المطران بولس بهنام ترجمها: «ثقله ذهبًا».

ولمّا سمع نبوسمك مسكين زميلي هذا الكلام، سجد أمام الملك وقال: إنّ مَن يعصي أوامر سيّده يستحقّ الموت، وأنا، يا سيّدي، قد عصيت أمر جلالتك فمر أن أشنق لأنّ أحيقار الذي أمرت بقتله ما زال حيًّا.

ولمّا سمع الملك ذلك قال: تكلّم، تكلّم يا نبوسمك، تكلّم أيّها الرجل الصالح والمستقيم الذي لا يعرف السوء والشرّ، أنّه إذا كان ما تقوله صحيحًا، وتحضر إليّ أحيقار حيًّا فإنّي سأغدق عليك العطايا فضّة زنة مئة وزنة، وأرجوانًا زنة خمسين وزنة[١٣].

قال له نبوسمك: إقسم لي يا سيّدي الملك أنّه إذا لم يكن لي ذنوب أخرى اقترفتها ضدّك. إنّك تغفر لي هذه الجريرة. وأقسم الملك له على ذلك.

وفي الحال صعد الملك إلى مركبته وأتى إليّ مسرعًا، وفتح مخبأي (حرفيًّا: وفتح على وجهي) فخرجت وجثوت أمام الملك، وشعر رأسي ملقى على كتفي ولحيتي انحدرت إلى صدري وجسمي كلّه معفّر بالتراب وأظفاري طويلة مثل مخلب النسر[١٤].

ولمّا رآني الملك بكى وخجل أن يكلّمني وبغمّ عظيم قال لي: يا أحيقار إنّني لم أجنِ عليك أنا، بل الذي جنى عليك هو ابنك الذي ربّيت.

حينئذ قلت: الآن يا سيّدي وقد رأيت وجهك كأنّي لم أُصب بسوء.

وقال لي الملك: إمض إلى بيتك يا أحيقار واحلق شعرك، واغسل جسمك واستعد قوّتك مدّة أربعين يومًا. وبعد ذلك عد إليّ.

ثمّ دخلت بيتي، ومكثت زهاء ثلاثين يومًا. ولمّا عادت قوّتي مثلت أمام الملك.

فقال لي الملك: هل رأيت الرسالة التي بعث بها فرعون مصر إليّ؟

فأجبت وقلت له: لا تهتمّ بذلك يا سيّدي الملك، سأذهب إلى مصر، وأبني للفرعون قصرًا وأجيبه على كلّ ما يسألني. وإنّي سأجلب معي جزية مصر لمدّة ثلاث سنوات.

وعندما سمع الملك هذا الكلام شمله فرح عظيم وأقام احتفالًا عظيمًا (حرفيًّا: وصنع يومًا عظيمًا) وذبح ذبائح كثيرة، ونفحني بالعطايا السخيّة. وأجلس نبوسمك مسكين زميلي في مقدّمة القوم.

فكتبت إلى زوجتي أشفغني أقول:

عندما تصلك رسالتي هذه قولي لصيّادي أن يصطادوا لي فرخَي نسر، وأوصي حياكي الكتّان أن يعملوا لي حبال كتّان يكون طول الحبل منها ألف باع وثخنها ثخن الخنصر، وقولي للنجّارين كي

(١٣) قصّة الكتابة على الحائط (دانيال ٥ : ١٣-١٨).

(١٤) سفر دانيال ٤ : ٣٣.

يصنعوا لي قفصين لفرخَي النسر. وسلّمي لعبائيل ولطبشليم طفلين لا يتكلّمان بعد، فيعلّمانهما أن يقولا: أعطوا البنّائين البطالين طينًا وملاطًا وقرميدًا ولبنًا».

وقد فعلت أشفغني امرأتي كلّ ما طلبت إليها.

حينئذ قلت للملك: الآن مر يا سيّدي واسمح لي بالسفر إلى مصر. ولمّا أمر، اصطحبت معي جيشًا وسافرت.

ولمّا بلغنا نهاية الشوط الأوّل للمبيت، أطلقت فرخَي النسر وربطت الحبال بأرجلها وأركبت عليهما الصبيّين فحملاهما وحلّقا في الأجواء العالية. فأخذ الصبيان يصرخا كما تعلّما: أعطوا الطين والملاط والقرميد للبنّائين فإنّهم بطالون. ثمّ اجتذبتهما.

وعندما وصلنا مصر ذهبت إلى باب الملك. فقال له عظماؤه إنّ قد وصل الرجل الذي أرسله ملك أشور.

وأمر الملك فأعطي لي بيت للمقام.

وفي اليوم التالي مثلت أمامه، وسجدت له وسلّمت عليه. فسألني الملك: ما اسمك؟ قلت: إسمي أبيقام، إحدى النملات الوضيعة في المملكة.

فأجاب الملك وقال: أمحتقر أنا عند سيّدك كلّ هذا الاحتقار ليبعث إليّ بنملة مرذولة من مملكته؟ إذهب يا أبيقام إلى منزلك وتعال إليّ في الصباح الباكر فقابلني.

ثمّ إنّ الملك أمر عظماؤه أن يرتدوا في الغد ثيابًا حمراء، أمّا هو فلبس ألبسة كتّانيّة[١٥]، وجلس على عرشه وأمر فدخلت ومثلت أمامه وقال لي: مَن أشبه[١٦] يا أبيقام؟ وعظمائي مَن يشبهون؟

فأجبت وقلت له: إنّك تشبه بيل يا سيّدي الملك، وعظماؤك يشبهون أحباره (كهنته).

فقال لي ثانية: إذهب يا أبيقام إلى بيتك وتعال إليّ في الغد.

وأمر الملك عظماؤه في الغد، فارتدوا ألبسة كتّانيّة بيضاء. أمّا هو فلبس الأبيض. وأمر فدخلت ومثلت بين يديه، فقال لي: مَن أشبه يا أبيقام، وعظمائي مَن يشبهون؟

فقلت له: إنّك يا سيّدي الملك تشبه الشمس وعظماؤك يشبهون شعاعها.

فقال لي مرّة أخرى: إذهب إلى منزلك وعد إليّ في الغد.

---

(١٥) ترجمها المطران بولس بهنام: «وارتدى الملك خزًا».

(١٦) في سفر حزقيال (الطبعة اليسوعيّة ٣١: ٢ و٣): «يا ابن البشر قل لفرعون ملك مصر وجمهوره من أشبهت في عظمتك؟ هوّذا أشور أرزة في لبنان بهيجة الأمتان غبياء الظلّ شامخة القوام...» والترجمة الأميركيّة للتوراة فقد سقطت لفظة «أشور» سهوًا ولست أدري لماذا؟ لأنّ النصّ العبريّ يذكر «أشور» ولا يستقيم المعنى بدون كلمة «أشور».

وأمر الملك عظماؤه أن يلبسوا في الغد ألبسة سوداء، وأمّا هو فلبس ألبسة قرمزيّة.

وأمر فدخلت ومثلت بين يديه وقال لي: مَن أشبه يا أبيقام، وعظمائي يشبهون مَن؟

فقلت له: إنّك يا سيّدي الملك تشبه القمر وعظماؤك يشبهون النجوم.

فقال لي: إذهب إلى بيتك وعد إليّ غدًا.

وأمر الملك عظماءه في الغد أن يلبسوا ألبسة ذات ألوان مختلفة متباينة ومزركشة، وأن يجلّلوا أبواب الهيكل بسجف حمراء[١٧]. وأمّا الملك فلبس ألبسة مزركشة بالتطريز[١٨].

وأمر الملك فدخلت ومثلت بين يديه. وقال لي الملك: مَن أشبه يا أبيقام، وعظمائي مَن يشبهون؟

فقلت له: إنّك يا سيّدي الملك تشبه شهر نيسان، وعظماؤك يشبهون وروده.

عندئذ قال الملك: في المرّة الأولى شبّهتني بالإله بيل وعظمائيّ بكهنته. وفي المرّة الثانية شبّهتني بالشمس وعظمائي بشعاعها. وفي المرّة الثالثة شبّهتني بالقمر وعظمائي بالكواكب. وفي المرّة الرابعة شبّهتني بشهر نيسان وعظمائي بوروده. والآن قل لي يا أبيقام، سيّدك مَن يشبه؟

فأجبته وقلت له: حاشاك يا سيّدي الملك أن تذكر اسم الملك سنحاريب وأنت جالس. إنّ سيّدي سنحاريب يشبه[١٩] (الإله أيلو) وعظماؤه يشبهون البرق والغيوم. وكلّما شاء يبلوّر من المطر والندى بَرَدًا. وإذا أرعد يمنع الشمس عن الشروق وأشعّتها من الظهور، كما يمنع بيل من التجوّل في الشوارع وعظماؤه من الظهور. ويمنع القمر من الإضاءة والنجوم من أن ترى[٢٠].

ولما سمع الملك ذلك شقّ عليه واشتدّ غضبه وقال لي: أستحلفك بحياة سيّدك قل لي ما اسمك؟

فأجبت وقلت له: أنا أحيقار الكاتب حامل أختام الملك سنحاريب ملك أشور ونينوى.

فقال الملك: ألم أسمع أنّ سيّدك قتلك؟

فقلت له: إنّي لم أزل حيًّا يا سيّدي الملك. إنّ الله أنقذني ممّا لم تجنه يداي.

فقال لي: رح يا أحيقار إلى منزلك

---

(١٧) يظهر أنّ لفظة هيكل وأصلها أشوريّ e - egallu ومعناها البيت الكبير كانت تطلق أيضًا على القصر أو البلاط الملكي.

(١٨) ترجمها بولس بهنام: «والملك ارتدى ثوبًا بلون التفّاح...».

(١٩) ربّما كان النصّ المشوّش هنا يعني «ربّ السماء».

(٢٠) ويضاف إلى ذلك في بعض النسخ: «وإذا أراد أن يأمر الريح الشماليّة فتهبّ وتلبّد الغيوم وتهطل الأمطار والبرد فيضرب نيسان فتتساقط أزهاره».

وعد إليّ غدًا. وقل لي كلمة لم أسمع بها بعد، ولا سمع بها عظمائي. كما لم تسمع قطّ في عاصمتي.

عندئذ جلست وأخذت أفكّر وفي قلبي رسالة كتبتها هذا نصّها:

«من فرعون ملك مصر، إلى سنحاريب ملك أشور ونينوى بسلام.

إنّ من الملوك يحتاجون إلى الملوك، والإخوة يحتاجون إلى الإخوة. وفي هذا الزمان قلّ رفدي وشحّ الملك في خزائني، فمر وارسل من خزائنك فضّة مقدار تسعمائة وزنة، فأعيدها إليك بعد زمن قصير».

فطويت الرسالة وقبضتها بيدي. وأمر الملك فدخلت ومثلت بين يديه وقلت له: قد يكون في هذه الرسالة كلمة لم تسمع بها قطّ. وعندما قرأتها أمامه وأمام عظمائه، صرخوا بصوت واحد - كما كان الملك قد أمرهم - وقالوا: قد سمعنا بهذه الكلمة. وهذا أمر صحيح. فقلت لهم: إذن مصر مدينة لأشور بمبلغ تسعمائة وزنة.

ولمّا سمع الملك تعجّب، فقال لي: أريد أن تبني لي قصرًا بين الأرض والسماء، ويكون ارتفاعه عن الأرض ألف باع[21] (ذراع).

فأخرجت فرخي النسر، وربطت الحبال بأرجلهما، واركبت عليهما الصبيّين وأطلقتهما. وكان الصبيّان يصرخان: أعطوا الطين والملاط والقرميد للبنّائين فإنّهم بطالون»[22].

ولمّا رأى الملك ذلك دهش.

حينئذ أخذت أنا أحيقار عصًا وشرعت أضرب عظماء الملك حتّى هرب جميعهم، فانتهرني الملك وقال: لقد جننت يا أحيقار، مَن يستطيع أن يرفع شيئًا إلى هذين الصبيّين؟

أمّا أنا فقلت له: دعك من ذكر سنحاريب سيّدي، لا تقول فيه سوءًا. لو كان حاضرًا لبنى قصرين اثنين في يوم واحد.

فقال لي الملك: دعك من أمر القصر يا أحيقار، وامض إلى منزلك وعد إليّ صباح الغد.

وعندما طلع النهار، مثلت بين يديه، فقال لي: فسّر لي هذه القضيّة. إنّ حصان سيّدك يصهل في أشور فتسمعه خيولنا هنا فتجهض؟

حينئذ خرجت من عند الملك وأمرت عبيدي أن يصطادوا لي هرّة. فكنت أضربها بالسوط في شوارع المدينة. وعندما رأى المصريّون ذلك ذهبوا فقالوا للملك، أنّ أحيقار يستعلي على شعبنا ويهزأ بنا، فقد أمسك هرّة وهو يضربها بالسوط في أسواق المدينة وشوارعها.

---

(٢١) ترجمها الدكتور أنيس فريحة «... علوّه ألف قامة...».

(٢٢) في بعض النسخ جملة أخرى بمعنى «أيّها العامل اجبل».

فأرسل الملك يدعوني، فدخلت ومثّلت أمامه. فقال لي: لماذا تهزأ بنا؟

فأجبته قائلًا: عش إلى الأبد يا سيّدي الملك، إنّ هذه الهرّة قد آذتني كثيرًا وأضرّت بي. فقد كان سيّدي قد أعطاني ديكًا، وكان صوته جميلًا، وكلّما صاح الديك كنت أعلم أنّ سيّدي يطلبني، وكنت أذهب إلى باب سيّدي. وفي الليلة الماضية ذهبت هذه الهرّة إلى آشور وقطعت رأس ذلك الديك وأتت.

فأجاب الملك وقال لي: يبدو لي يا أحيقار أنّك هرمت فجننت. هناك ثلاثمائة وستّون فرسخًا من هنا إلى آشور، فكيف تقول إنّ هذه الهرّة ذهبت في ليلة واحدة وقطعت رأس الديك وعادت؟!

فقلت له: إذن كيف على بعد ثلاثمائة وستّين فرسخًا، سمعت خيولكم من هنا صهيل حصان سيّدي فأجهضت؟!

ولمّا سمع الملك ذلك اغتمّ كثيرًا وقال: فسّر لي يا أحيقار هذه الأحجية: هناك عمود على رأسه اثنتا عشرة أرزة، وفي كلّ أرزة ثلاثون عجلة، وفي كلّ عجلة حبلان أحدهما أبيض والآخر أسود.

فأجبت وقلت له: يا سيّدي الملك إنّ رعاة الثيران في بلادنا يعرفون جواب هذه الأحجية التي ذكرتها. فالعمود الذي ذكرته هو السنة، والاثنتا عشرة أرزة هي أشهر السنة الاثنا عشر، والحبلان الأبيض والأسود هما الليل والنهار.

عندئذ قال لي الملك: يا أحيقار افتل لي خمسة حبال من رمل النهر.

فقلت له: مر يا سيّدي بأن يخرجوا لي حبلًا من الرمل من خزائنك لكي أعمل مثله.

حينئذ قال لي: إن لم تعمل لي هذه الحبال فإنّي لن أعطيك خراج مصر.

فجلست أفكّر في نفسي كيف عساني أن أفعل هذا. وخرجت خارج قصر الملك وثقبت خمسة ثقوب في الجدار الشرقيّ للبلاط. ولمّا دخلت أشعّة الشمس في الثقوب أثرت الرمل، فظهرت أشعّة الشمس وكأنّها حبال من الثقوب، وقلت للملك، مر يا سيّدي أن يزيلوا هذه الحبال من أماكنها وأنا أفتل لك غيرها.

ولمّا رأى الملك وعظماؤه ذلك دهشوا.

ثمّ أمر الملك أن يحضروا لي حجر الرحى العليا التي كانت قد تصدّعت وقال لي: يا أحيقار خيّط لنا هذه الرحى المكسورة.

فذهبت وأحضرت حجر رحى وطرحتها أمام الملك وقلت له: يا سيّدي الملك، أنا غريب هنا، وليست معي آلة هذه الحرفة، فمر الإسكافيّين أن يقطعوا لي قِدًّا من هذه الرحى وهي رفيقه الأولى وحالًا أخيّطها.

ولمّا سمع الملك ذلك ضحك وقال: ليكن اليوم الذي ولد فيه أحيقار يومًا مباركًا أمام آلهة مصر ولأنّي رأيتك حيًّا فإنّي أعتبر من هذا اليوم يومًا عظيمًا أقيم فيه مأدبة.

ثمّ أعطاني خراج مصر لسنوات ثلاث.

وبسرعة قفلت راجعًا إلى سيّدي سنحاريب، فوصلت، فخرج للقائي واستقبلني. وأقام يومًا عظيمًا (احتفالًا كبيرًا) وأقامني على أهل بيته، وأجلسني في مقدّمة أخصّائه وقال لي: أطلب ما بدا لك يا أحيقار.

فسجدت للملك وقلت: يا سيّدي كلّ ما تريد أن تنفحني به، أعطه لزميلي نبوسمك مسكين، لأنّه هو استبقاني حيًّا. وأمّا أنا فمر أن يدفع إليّ ابني نادان لكي أعلّمه تعليمًا جديدًا، لأنّه نسي التعليم الأوّل.

فقال الملك: إذهب يا أحيقار وكلّ ما تريد أن تفعل بنادان ابنك فافعله ولا مَن ينقذ جسده من يدك.

حينئذ أخذت نادان ابني، وجئت به إلى بيتي، وربطته بسلسلة حديديّة زنة عشرين وزنة، وربطتها بحلقات، وطوّقت عنقه بطوق وضربته على كتفيه ألف عصا، وعلى متنيه ألف ضربة وضربة، وربطته في عتبة باب داري، وأعطيته الخبز موزونًا وأسلمته إلى غلامي نبوايل لكي يحرسه، وقلت لغلامي، أكتب على لوحة ما أقوله لابني نادان:

يا بنيّ، مَن لا يسمع بأذنيه، فإنّهم يسمعونه من قذالة (أو قفا عنقه).

أجاب نادان ابني وقال: لماذا أنت حانق على ابنك؟

أجبت وقلت له: يا بنيّ أجلستك على كرسي الوقار، وأمّا أنت فقد طرحتني من كرسيّ فأنقذني بري وصلاحي، فصرت لي يا ابني كالعقرب الذي لسع صخرة، فقالت الصخرة أنّك لسعت قلبًا جامدًا، ثمّ لسع إبرة، فقيل له: إنّك لسعت حمى أشدّ من حمتك.

كنت لي يا ابني، كالعنزة التي وقت على شجرة السماق تأكل منها، فقالت لها الشجرة: لماذا تأكليني؟ إنّ جلدك يدبغ بجذوري. فقالت العنزة: إنّي آكلك وأنا حيّة، وبعد موتي يستاصلونك من جذورك.

يا بنيّ، لقد كنت لي كمَن رشق حجرة إلى السماء، ولكن الحجر لم يصل إلى السماء، إنّما بعمله هذا يكون قد أخطأ إلى الله.

يا بنيّ، كنت لي مثل رجل رأى رفيقه يرتجف من البرد، فأخذ قربة ماء بارد وصبّها عليه.

يا بنيّ، لا تظنّن بأنّك كنت تقوم مقامي بعد قتلك إيّاي، إذ ينبغي لك أن تعرف يا بنيّ، إنّه إذا طال ذنب الخنزير حتّى أصبح سبعة أذرع فإنّه لا يقوم مقام الجواد. وكذلك إذا لان شعره فإنّ رجلًا شريفًا لن يعلو متنه أبدًا.

يا بنيّ، أردتك أن تخلفني، فترث بيتي وثروتي، ولكن لم يرق ذلك الله ولم يسمع صوتك.

كنت لي يا ابني، كالأسد الذي صادف حمارًا في الصباح الباكر، فقال له:

أهلًا بسيّدي (قوريس). فقال له الحمار: ليت سلامك هذا يعطى لمَن ربطني مساء فلم يحكم ربطي ولم أكن أرى وجهك.

يا بنيّ، إنّ فخًا أقيم في دمنة، فأتى عصفور فرآه وقال له: ماذا تعمل هنا؟ قال له الفخّ: إنّي أصلّي إلى الله. قال له العصفور: وما هذا الذي في فمك؟ قال الفخّ: خبز للضيوف. فاقترب منه العصفور ونقر من الخبز شيئًا فأطبق عليه الفخّ واصطاده. فقال له العصفور وهو يئنّ ألمًا وينتفض: إذا كان هذا خبزك للضيوف، ليت الآله الذي تصلّي إليه لا يستجيب لك.

يا بنيّ، لقد كنت لي كأسد ربط إلى جانب الثور، فالتفت الأسد ومزّقه[٢٣].

يا بنيّ، كنت لي كسوسة الحنطة التي أفسدت أهراء الملوك، وهي في حدّ ذاتها حقيرة الشأن.

يا بنيّ، لقد كنت لي كقدر ركّب له قبضتان (أذنان) من ذهب، ولكن أسفله لم ينظّف من السواد.

يا بنيّ، لقد كنت لي كفلاّح بذر في حقله عشرين مدًّا من الشعير، وعندما حصده وجد أنّ الغلّة عشرين مدًّا. فقال للحقل: لقد حصدت ما زرعت فيك. وأمّا أنت فيجب أن تخجل بصيتك السيئ، لأنّك أعطيت المدّ مدًّا. وأمّا أنا فكيف أستطيع العيش.

يا بنيّ، لقد كنت لي كعصفور لم يستطع أن ينجّي نفسه من الموت، وصوته غرر بأصحابه.

يا بنيّ، لقد كنت لي كتيس ماعز، أدخل أصحابه إلى المسلخ، وهو لا ينجّي نفسه.

يا بنيّ، لقد كنت لي كالكلب الذي دخل إلى فرن الخزّاف ليتدفأ، وبعد أن دفئ، نهض لينبح على الخزّافين.

يا بنيّ، لقد كنت لي كالخنزير الذي كان ذاهبًا إلى الحمّام، ولمّا رأى حمأة وحل نزل يتمرّغ بها ودعا أصحابه أن يتمرّغوا.

يا بنيّ، إنّ إصبعي على فمك[٢٤]، وأصبعك على عيني، فهل ربّيتك أيّها الثعلب لتكون عيناك ناظرتين إلى التفّاح.

يا بنيّ، إنّ الكلب الذي يأكل من صيده يصبح من فصيلة الذئاب، واليد الكسلانة يجب بترها من الكتف، والعين التي لا تبصر تقتلعها فراخ الغربان، فأيّ عمل صالح صنعته معي يا بنيّ، لكي أذكرك فترتاح فيك نفسي وتسرّ بك؟!

يا بنيّ، إذا الآلهة سرقت فبماذا يستحلفونها؟ والأسد الذي يسرق قطعة أرض كيف يجلس فيأكلها؟ أنا يا بنيّ،

(٢٣) ترجمه الدكتور أنيس فريحة: «. . . كنت معي كثور إلى جانب أسد، فالتفت الأسد ومزّقه».

(٢٤) د. أنيس فريحة ترجمها: «. . . إنّ أصبعي على فمي. . .» ويريد أحيقار أن يقول أنا كتوم، وأنت تحاول أن تخفي ذاتك وراء الإصبع، أي لا تستطيع أن تخفي عملك الشنيع.

أريتك وجه الملك، ورفعتك إلى كرامة باذخة، وأنت رغبت في الإساءة إليّ.

يا بنيّ، لقد كنت لي كالشجرة التي قالت لقاطعيها، لو لم يكن بأيديكم منّي (مقبض الفأس) لما هاجمتموني.

يا بنيّ، لقد كنت لي كفراخ السنونو الذين سقطوا من عشّها، فتلقّفتهم هرّة وقالت لها: لو لم أكن أنا لأصابكم شرّ عظيم. فقالت لها (الفراخ للهرّة) ولهذا وضعتنا في فيك.

يا بنيّ، لقد كنت لي كتلك الهرّة التي قيل لها: أتركي سرقاتك فتدخلين دار الملك وتخرجين كما تشائين؛ فأجابت وقالت: لو خلقت لي عينان من الفضّة وأذنان من الذهب لما تركت سرقاتي.

يا بنيّ، لقد كنت لي كالحيّة التي ركبت عوسجًا وطرحت في النهر فرآهما ذئب وقال لهما: شرّ ركب شرًّا، وشرّ من كليهما يقودهما. قالت الحيّة: لو جئت إلى هنا لحسبت حساب المعزى وبنيها.

يا بنيّ، رأيت عنزة قيدت إلى المسلخ، ولمّا لم يأت أجلها عادت إلى حضيرتها ورأت بنيها وبني بنيها.

يا بنيّ، لقد رأيت الأمهار (صغار الخيل) تقتل أمّهاتها[٢٥].

أنا يا بنيّ، لقد أطعمتك أشهى الطعام، وأنت أطعمتني خبزًا معفّرًا بالتراب ولم أشبع.

أنا يا بنيّ، دهنتك بالطيوب المعطّرة، وأمّا أنت فعفّرت بالتراب جسمي.

أنا يا بنيّ، ربّيت قامتك كالأرز، وأنت أحنيت ظهري وأفقدتني رشدي بشرّك (حرفيًّا: سكرت أو رويت من ضرّك).

يا بنيّ، أنا رفعتك كالبرج وكنت أقول: إذا هاجمني عدوّي أصعد وأتحصّن فيك، وأنت إذ رأيت عدوّي انحنيت له.

يا بنيّ، لقد كنت لي كالخلد الذي خرج من قلب الأرض ليستقبل الشمس لأنّه لا عينان له، فرآه النسر وهاجمه واختطفه.

فأجاب نادان وقال لي: حاشاك من أن تؤخذ بهذه يا أبت أحيقار. فاعطف عليّ برحمتك، فإنّ الله أيضًا يغفر للناس إذا أخطأوا وأنت اغفر لي هذه الجريرة، وأكون خادمًا لخيلك، وراعيًا لخنازير بيتك، ولا أدعى شرّيرًا، وأنت لا تحسب لي شرًّا.

أجبت وقلت: كنت لي يا بنيّ كتلك النخلة المغروسة على النهر، كانت تطرح كلّ أثمارها في النهر، ولمّا جاء صاحبها ليقطعها، قالت له: أمهلني هذه السنة فاثمر خرنوبًا. فقال لها: إنّك لم تنجحي بإعطاء ثمرك، فكيف بإعطاء ما هو ليس لك.

يا بنيّ، قيل للذئب لم تسير وراء الغنم؟ قال: إنّ غبارها مفيد ودواء لعيني، وأدخلوه (الذئب) إلى المدرسة فقال له

---

(٢٥) ترجمها المطران بولس بهنام: «... رأيت إعفاء...» جمع عفو وتعني صغار الحمير.

المعلّم: ألف باء. قال الذئب: الجدي والحمل.

يا بنيّ، أنا علّمتك أنّه يوجد آله. وأنت هاجمت العبيد الصالحلين فجلدتهم بدون ذنب، كما نجّاني الله لأجل برّي، فإنّه يهلكك لأجل أعمالك الشرّيرة.

يا بنيّ، قد وضعوا رأس الحمار في طبق على المائدة، فتدحرج وسقط على التراب. فقالوا أنّه غضب على نفسه لأنّه لا يستحقّ الكرامة.

إنّك يا بنيّ، أكّدت صدق المثل القائل: إبنك هو الذي ولدته أنت، وابنك الذي اشتريته سمّه عبدك.

يا بنيّ، لقد صدق المثل القائل: تأبّط ابن أختك واضرب به الحائط، ولكن الذي أبقاني حيًّا سيقضي بيننا.

وفي تلك الساعة انتفخ نادان حتّى أصبح كزقّ منفوخ ومات.

فمَن يصنع خيرًا يلق خيرًا. ومَن يصنع شرًّا يلق شرًّا، ومَن حفر حفرة لأخيه فإنّه سيملأها بقامته.

إنتهت أمثال أحيقار الحكيم، كاتب سنحاريب ملك أشور ونينوى.

أثر حكمة أحيقار في الأدب العبريّ

تصبح الحكم والأمثال، على ممرّ العصور، مشاعًا فكريًّا وأدبيًّا يتناوله مَن يشاء عن طريق الاتّصال المباشر وغير المباشر، فإنّ الشعوب تلتقي في مجالات كثيرة، والحضارات تتفاعل. لذا ينكر بعض الناس كلّ محاولة يقوم بها المؤرِّخ أو الأديب لإرجاع حكمة أو مثل، أو قول شائع إلى هذا أو ذاك، على أساس أنّ إظهار البينة، لاسيّما إذا لم يكن هناك وثائق كتابيّة - يعتمد عليها، من الأمور الصعبة.

ونحن نسلّم بوعورة البحث ونعترف أنّ المزالق كثيرة. مثال ذلك الشبه الشديد بين ما يُعزى إلى أحيقار من أقوال وحكم وأمثال، وبين ما جاء في الأدب الحكميّ عند العبرانيّين واليونان والعرب. وتبقى أمور كثيرة قيد التساؤل.

نريد أن نقول، إنّ تقصّي حكمة إنسانيّة إلى مصدرها الأوّل أمر عسير لا يسلم الباحث فيه من خطأ في التقدير.

إن مقابلة أقوال أحيقار بكثير من الأمثال والحكم عند العبرانيّين ترينا أنّ كتّاب أسفار العهد القديم كانوا يعرفون هذه الأمثال والحكم، ولا غرابة في الأمر، إذ إنّ أحيقار وخبره وحكمه ظلّت معروفة شائعة في العالمين اليهوديّ والمسيحيّ إلى يومنا هذا. وها هي أمثالنا العاميّة الجارية بين الناس خير شاهد على ما نقوله.

وقد اخترنا عددًا من الأسفار مثلًا على الشبه الكبير بينها وبين قصّة أحيقار من جهة، ومن ثمّ بين الأمثال والحكم من جهة أخرى.

إنّ أسفار العهد القديم التي نجد فيها عناصر واضحة من حكمة أحيقار ضربان:
الأوّل، كتب نصّها الأصليّ مدوّن باللغة العبريّة.

والثاني، كتب نصّها الأصليّ مدوّن باللغة الآراميّة. وهي آراميّة حكمة أحيقار بالذات. بل آراميّة جميع النصوص والوثائق المسجّلة في تلك الحقبة.

إنّ لحكمة أحيقار علاقة وثقى بعدّة أسفار من العهد القديم دخلت عناصرها هذه الأسفار عن طريق كونها حكمة إنسانيّة منتشرة سواء بطريقة شفويّة أو بطريقة الكتابة. ولا نرى غضاضة لهذه الأسفار أن تنطق بلغة بشريّة وقد نزلت لهدايتهم وتقويم إنسانيّتهم.

والأسفار الحاوية بعض العناصر من حكمة أحيقار وكتب نصّها الأصليّ بالعبريّة هي:

١ - سفر أيّوب البارّ

يبتدئ هذا السفر بقصّة شعبيّة يذكرها الجميع، تروي قصّة حياة رجل من عهد الآباء البعيد، اسمه أيّوب.

فأيّوب رجل غنيّ ونافذ، أب لسبعة بنين وثلاث بنات، وهو أيضًا مثال البراءة والتعلّق بالخير والبعد عن الشرّ. ويهوه فخور به. لكنّ الشيطان شكّ في أن تصمد هذه الأمانة الرفيعة حيال المحن. فسمح الله بأن يفقد أيّوب أولاده وخيراته دفعة واحدة، ثمّ مني أيّوب شخصيًّا، فلم يعد سوى مريض مغشى بالقروح، مضجع في الرماد.

إنّ الروايات النثريّة في هذا السفر شأن الجزء الشعريّ، لا تقتضي أن نعتبرها كوثائق تاريخيّة صحيحة[١]. لكن اسم أيّوب ليس مَن ابتداع مؤلّف السفر، فإنّه معروف منذ عهد رسائل تل العمارنة (القرن الرابع عشر قبل الميلاد). وهناك تقليد بارز في سفر حزقيال[٢]، يحمل اسم ثلاثة صدّيقين وهم نوح ودانيال (المذكور في صفائح رأس شمرا) وأيّوب. ولا يستبعد أن يكون ذكر هذا الصدّيق قد حمل معه شيئًا من البلايا حتّى قبل تأليف السفر.

إنّ كاتب هذا السفر يأتي بعد إرميا وقد استلهمه. وبعد حزقيال وهو سابق دون شكّ للعهد الأغريقيّ، وأغلب الظنّ أنّه من أبناء الجيل الخامس قبل الميلاد.

ومن الثابت، أنّ النصّ الأصليّ لسفر أيّوب كتب بالعبريّة تتخلّله جمل بالآراميّة والعبريّة[٣]، الأمر الذي ينفرد به عن جميع أسفار العهد القديم.

ولقد ورد فيه عددان نجد لهما عنصرًا واضحًا في حكمة أحيقار:

الأوّل: قول أيّوب (٦: ٢ و٣): «ليت كربي وزن، وبلاياي رفعت جملة في ميزان إذن لكانت أثقل من رمل البحار

(١) لقد عثرت بعثة جامعة بنسلفانيا للتنقيبات في مدينة نيبور ١٦٠ كم جنوب بغداد على قصيدة تتألّف من ١٣٩ سطرًا، وهي أوّل محاولة مدوّنة للإنسان في معالجة موضوع العذاب والخضوع الذي اشتهر في الأدب الدينيّ بسبب سفر أيّوب رغم أنّها دوّنت قبل سفر أيّوب بألف عام. وقد اصطلح على تسميتها باسم: «أيّوب السومريّ والبابليّ» لعمق التشابه بين الشخصين والسفرين إن صحّ التعبير.

(٢) جاء: «لو كان فيها هؤلاء الرجال الثلاثة، نوح، ودانيال وأيّوب، لكانوا إنّما ينقذون ببرّهم أنفسهم يقول السيّد الربّ... وكان فيها نوح ودانيال وأيّوب فحيّ أنا يقول السيّد الربّ أنّهم لا ينقذون لها ابنًا ولا ابنة، إنّما ينقذون ببرّهم أنفسهم» (حزقيال ١٤: ١٤-٢٠).

(٣) قاموس الكتاب المقدّس، ٢: ٦٧.

فلذلك ألغو في كلامي».

وهذا يتّفق وما ورد في حكمة أحيقار في رفع الرمل وثقله. قال الحكيم أحيقار: «جرّبت الرمل وحملت الملح فلم أجد أثقل من الدَين».

والثاني قول أيّوب (٣٦: ٩ ١٠): «ينبئهم بأعمالهم ومعاصيهم إذا تجبّروا ويفتح آذانهم للتأديب ويأمرهم بالإقلاع عن الإثم».

يتّفق وما ورد في النصّ الآراميّ المتأخّر (السريانيّ الحديث) من حكمة أحيقار بشأن حفظ المرء ذاته من الاعتداء على زوجة صاحبه لئلاّ يعتدى على زوجته فيقول: «يا بنيّ لا تفسق بامرأة صاحبك، لئلاّ يفسق آخرون بامرأتك».

٢ - سفر المزامير

هذا السفر هو مجموعة أصبحت عاجلًا أو آجلًا رسميّة، مجموعة أناشيد أو قصائد، كثر استعمالها في رتب الهيكل والاجتماعات الدينيّة.

عدد المزامير مئة وخمسون مزمورًا، تنسب إلى النبيّ داود بطريقة نسبة الكلّ إلى الجزء. فإنّ داود لم يكتب جميع المزامير، أو ربّما لم يكتب شيئًا منها على رأيي بعض المدقّقين. فقد كتبت عن لسانه ونسبت إليه، وسجّلت مزامير كثيرة منها بعد عهده منسوب بعضها إلى (بني قورح) والبعض الآخر إلى سليمان، والبعض الآخر إلى غيرهما، الأمر الذي يؤيّد كون كتابة هذه المزامير كان بعضه قبل السبي البابليّ، والبعض الآخر في غضونه شأن المزمور القائل: «على أنهار بابل هناك جلسنا فبكينا عندما تذكّرنا» (مز ٣٦) والبعض الآخر بعده.

ويؤيّد علماء العهد القديم أنّ المزامير الأخيرة كتب بعضها في القرن الرابع قبل الميلاد، والبعض الآخر في عهد المكابيّين، والبعض الآخر حوالي نهاية القرن الثاني قبل الميلاد.

ومن المؤكّد أنّ كتّاب المزامير المتأخّرين مطلعون على قصّة أحيقار وحكمته فقد وردت في هذا السفر صور كثيرة تنطبق تمام الانطباق على حالة أحيقار فيذكر فيه (الحضرة) و(الشبكة) كقوله:

«إنّ حبائل الموت اكتنفتني، وسيول الفجور هالتني، وحبائل الهاوية أحاطت بي وشراك الموت نصبت بين يدي» (مز ١٧ : ٥-٦).

هذه الأمور التي تصوّر أحيقار في محنته تمام التصوير.

كما أنّ هناك عناصر كثيرة تنطبق وما ورد في حكمة أحيقار بعد نكبته سيّما كلماته الأخيرة في توبيخ ابنه نادان.

٣ - سفر الأمثال

إنّ سفر المزامير، الآنف الذكر، يعيد إلى الأذهان ذكر الملك داود، وها هو سفر الأمثال يرينا ضربًا آخر من المجموعات في حكم الحكماء «المشاليم» وكان لا بدّ من أن تنتمي إلى سليمان الحكيم ابن الملك داود الشهير.

غير أنّ السفر ليس بكامله من تأليف هذا الملك، وهو يسند إليه مجموعتين مهمّتين(٤)، يسبقهما ويتخلّلهما تتمّات مهمّة.

إنّ هذه المجموعة المركّبة قد اكتملت دون شكّ بشكلها النهائيّ بعد السبي، وهي تسبق بكثير تاريخ تكوين الأسفار المماثلة المستوحاة منها أي سفر الجامعة وسفر الحكمة وسفر ابن سيراخ، فقد تكوّن من الجيل الخامس قبل الميلاد، والمقدّمة هي على ما يظهر العنصر الأحدث فيها.

إنّ لغة الأمثال لربّما تعود إلى عهد أقدم من عهد سليمان، وقد فاهت بها شعوب الشرق القديمة وحكماؤها من آدوميّين وأشوريّين ومن مصريّين خاصّة. فبعد أن كان «سفر الأمثال» العبرانيّ يعدّ أقدم مجموعة من الحكم والأقوال المأثورة في تاريخ الإنسان المدوّن، اكتشف أنّ المدنية المصريّة هي أقدم إذ عثر على مجموعات من الأمثال والوصايا المصريّة وهي تسبق في زمنها «سفر الأمثال» التوراتيّ بسنين كثيرة.

ولكن هذه الأمثال المصريّة ليست بأيّة حال أقدم أمثال وحكم مدوّنة عند الإنسان. فإنّ مجموعات الأمثال السومريّة تسبق في عهدها ما هو معروف من المجموعات المصريّة إن لم يكن كلّها بعدّة قرون(٥).

يشمل سفر الأمثال على واحد وثلاثين إصحاحًا، تضمّ ٩١٢ عددًا أو مثلًا. إلاّ أنّ عددًا كبيرًا منها لا صفة دينيّة لها البتّة، لكن غالبًا ما نعثر فيها على فكرة الله وحضوره وسير الحياة اليوميّة في مختلف نواحيها.

ولقد وردت في هذا السفر نصوص غزيرة جدًّا تتّفق وحكمة أحيقار في مواضيع حياتيّة شتّى منها:

في تربية الأطفال وتأديبهم

١) في فم الفطن توجد الحكمة والعصا على ظهر فاقد اللب. (أمثال ١٠ : ١٣).

٢) مَن وفّر عصاه فهو يبغض ابنه، والذي يحبّه يبكّر إلى تأديبه. (أمثال ١٣ : ٢٤).

٣) السفه متأصّل في قلب الصبيّ لكن

---

(٤) أنظر الفصول ١٠-٢٢، و٢٥-٢٩.

(٥) راجع كتابنا «الحكمة في وادي الرافدين» بغداد ١٩٨٣.

عصا التأديب تنقيه. (أمثال ٢٢: ١٥).
٤) مَن استهان بالكلمة يبيد ومَن هاب الوصيّة يجازى. النفوس الغاشة تتيه في الخطايا والصدّيقون يرأفون ويقرضون. شريعة الحكيم ينبوع حياة، ليجتنب إشراك الموت. (أمثال ١٣: ١٣-١٤).

يقابلها من حكمة أحيقار ما يلي:

١) يا بنيّ، لا تحرم ابنك من الضرب (التأديب) لأنّ الضرب للصبيّ كالسماد للبستان، وكاللجام للبهائم، وكالقيد في رجل الحمار. (رقم ٢٢).
٢) يا بنيّ، اخضع ابنك ما دام صغيرًا قبل أن يفوقك قوّة ويتمرَّد عليك فتخجل في مساوئه. (رقم ٢٣).

وجوب معاشرة الحكماء

١) مساير الحكماء يصير حكيمًا ومؤانس الجهّال يصير شرّيرًا. (أمثال ١٣: ٢٠).

يقابلها من حكمة أحيقار:

١) يا بنيّ، مع الحكيم لن تفسد، ومع الفاسد لن تكون حكيمًا. (رقم ١١).
٢) يا بنيّ، عاشر الحكيم تصبح حكيمًا مثله، ولا تعاشر الوقح المهذار لئلاّ تحسب نظيره. (رقم ١٢).

الجار الصالح وتجنّب الخصام

١) لا تترك صديقك ولا صديق أبيك، ولا تدخل بيت أخيك في يوم بؤسك. جار قريب خير من أخ بعيد. (أمثال ٢٧: ١٠).

يقابلها من حكمة أحيقار:

١) يا بنيّ، صديق قريب خير من أخ بعيد، والاسم الجيّد خير من الجمال الباهر، لأنّ الاسم الجيّد يدوم إلى الأبد والجمال يذوي ويزول. (رقم ٤٩).
٢) يا بنيّ، لا تقف حيث الخصومة لأنّ من الخصام ينتج القتل. (رقم ٥٥).
٣) يا بنيّ، لا تبتعد عن صديق أبيك، فربّما لا يصلك صديقك. (رقم ٥٧).

الصيت الحسن

١) يا بنيّ، كن حكيمًا وفرّح قلبي فأجيب معيّري بكلمة. (أمثال ٢٧: ١٢).
٢) ذو الدهاء رأى الشرّ فتوارى، والأغرار جازوا فنالهم السوء. (أمثال ٢٧: ١٣).

يقابلها من حكمة أحيقار:

١) يا بنيّ، صديق قريب خير من أخ بعيد، والاسم الجيّد خير من الجمال الباهر، لأنّ الاسم الجيّد يدوم إلى الأبد، والجمال يذوي ويزول. (رقم ٤٩).

جشع الإنسان ومتع الحياة

١) الصيت أفضل من الغنى الكثير، والنعمة خير من الذهب والفضة. (أمثال ٢٢: ١).

يقابلها من حكمة أحيقار:

١) يا بنيّ، الزبد الذي في يدك خير من الدهن الذي في قدر الآخرين، ونعجة قريبة خير من بقرة بعيدة، وعصفور في يدك خير من ألف عصفور طائر، والفقر الذي يجمع، خير من الغنى الذي يبدّد، ورداء صوف ترتديه خير من خزّ وأرجوان يرتديه

الآخرون. (رقم ٥١).
٢) يا بنيّ، عين الإنسان هي كينبوع ماء، ولا تشبع من الأموال حتّى تمتلئ بالتراب. (رقم ٦٦).

صفات المرأة الشرّيرة

١) وتنقذك من المرأة الأجنبيّة من الغريبة التي تتملّق كلامها. (أمثال ٢: ١٦).
٢) ولم تهيم يا بنيّ بالأجنبيّة أو تحتضن الغريبة. (أمثال ٥: ٢٠).
٣) لكي تحفظك من المرأة الشرّيرة من تملّق لسان الغريبة. (أمثال ٦: ٢٤).
٤) لا تشته بقلبك جمالها ولا تفتنك بجفنيها، فإنّه بالمرأة الزانية يصار إلى عوز رغيف من الخبز وذات البعل تصطاد النفس الكريمة. أيأخذ إنسان نارًا في حجره ولا تحترق ثيابه، أم يمشي أحد على الجمر ولا تكتوي قدماه؟ هكذا الداخل على امرأة قريبه، كلّ مَن مسّها لا يكون زكيًّا. (أمثال ٦: ٢٥-٣٠).
٥) لا يجنح قلبك إلى طرقها ولا تهيم في مسالكها. (أمثال ٧: ٢٥).
٦) فإنّها طرحت كثيرين جرحى، وكلّ مَن قتلته كان من الأقوياء. (أمثال ٧: ٢٦).
٧) المرأة الفاضلة إكليل لرجلها وذات الفضائح كنخر في عظامه. (أمثال ١٢: ٤).

يقابلها من حكمة أحيقار:

١) يا بنيّ، لا ترفع نظرك إلى امرأة متبرّجة متكحّلة ولا تشتهها في قلبك لأنّك إن أعطيتها كلّ ما ملكت يداك، لن تجد فيها خيرًا وترتكب أثمًا أمام الله. (رقم ٥).
٢) يا بنيّ لا تفسق بامرأة صاحبك لئلاّ يفسق آخرون بامرأتك. (رقم ٦).
٣) يا بنيّ، لا تقرب امرأة مهذارة ولا صخّابة. (رقم ١٨).
٤) با بنيّ، لا يغرينك جمال المرأة ولا تشتهها في قلبك لأنّ جمال المرأة ذوقها وبهاؤها نطقها. (رقم ١٩).

سقوط الأشرار وانتصار الأبرار

١) فإنّ الصدّيق يسقط سبع مرّات، وينهض. أمّا المنافقون فيقعون في العطب. (أمثال ٢٤: ١٦).

يقابلها من حكمة أحيقار:

١) يا بنيّ، إنّ الأثيم يسقط ولا ينهض، والبارّ لا يتزعزع لأنّ الله معه. (رقم ٢١).

عدم الشماته بالأعداء

١) يا بنيّ، كن حكيمًا، وفرّح قلبي فأجيب معيّري بكلمة. (أمثال ٢٧: ١١).

يقابلها من حكمة أحيقار:

١) يا بنيّ، لا تفرح إذا مات عدوّك. (رقم ٦٠).

العودة إلى الأخلاق السيّئة

١) ككلب عائد على قيئه. هكذا الجاهل المكرّر سفهه. (أمثال ٢٦: ١١).

يقابلها من حكمة أحيقار:

١) كنت لي يا بنيّ، كالكلب الذي دخل

إلى فرن الخزّاف ليتدفّأ، وبعد أن دفئ نهض لينبح على الخزّافين. (في توبيخ ناداں).

فراخ النسر. (أمثال ٣٠: ١٧).

يقابلها من حكمة أحيقار:

١) يا بنيّ، إنّ الكلب الذي يأكل من صيده يصبح من فصيلة الذئاب. واليد التي لا تجتهد تقطع من أصلها، والعين التي لا تبصر تقتلعها أفراخ الغربان. (توبيخ ناداں).

إقتلاع العيون الشرّيرة

١) العين المستهزئة بالأب والمستخفّة بطاعة الأمّ تفقاها غربان الوادي وتأكلها

٤ – سفر الجامعة

إنّ سفر الجامعة، لهو في الحقيقة أشدّ أسفار الكتاب المقدَّس غموضًا وأجدرها في تضليل القارئ السطحيّ.

يبتدئ الغموض بشخص المؤلِّف نفسه الذي يدعى في الفصل الأوّل أنّه ابن لداود الملك وملك أورشليم، فيبدو لنا وكأنّ كلّ حكمة سليمان وغناه المضروب بهما المثل. وكان يجب أن لا تغشي هذه التسمية الوهميّة أحدًا لأنّ المؤلِّف يتكنّى في ذات الوقت باسم آخر أي «الجامعة».

وفي نهاية السفر خلاصة كتبتها يد ثانية تضعه بين «الحكماء» دون ريب أمثال الذين سيدعون في زمن الإنجيل «المعلّمين».

ثمّ إنّ كلمة «الجامعة» ليست اسم علم حقيقيّ بل تعني شخص المؤلِّف من خلال وظيفته وهي دون ريب وظيفة معيّنة في الجماعة.

كتب النصّ الأصليّ لهذا السفر بالعبريّة، وقد وجد علماء الكتاب المقدَّس نصوصًا كثيرة بين فصوله لا يمكن أن يكون سليمان كاتبها، ويرتقي عهد هذه النصوص إلى حوالى القرن الثالث قبل الميلاد، أو إلى العهد اليونانيّ (٢٠٤–٢٠٠ق.م)[٦].

وعليه نجد خمسة نصوص على الأقل في هذا السفر تتّفق وبعض ما ورد في حكمة أحيقار وتدور حول:

المرأة الشرّيرة

١) فوجدت أنّ ما هو أمرّ من الموت المرأة التي قلبها أحبولة وشبكة، ويداها قيود. مَن كان صالحًا أمام الله ينجو منها، وأمّا الخاطئ فيقتنص بها. (الجامعة ٧: ٢٧).

يقابلها في حكمة أحيقار:

١) يا بنيّ، لا ترفع نظرك إلى امرأة متبرّجة

(٦) قاموس الكتاب المقدّس (بالإنكليزية) ج١ ص ٦٣٧ و٧٤٠.

متكحّلة ولا تشتهيها في قلبك، لأنك إن أعطيتها كلّ ما ملكت يداك لن تجد فيها خيرًا وترتكب إثمًا أمام الله. (رقم ٥).

النظر إلى الجاهل واستهتاره

١) سماع الانتهار من الحكيم خير من سماع ترنيم الجهّال. (الجامعة ٧: ٦).

يقابلها من حكمة أحيقار:

١) نقل الحجارة مع رجل حكيم أفضل من شرب الخمرة مع رجل جاهل. (رقم ٩).

٢) يا بنيّ، اسكب خمرتك على قبور الصالحين ولا تشربها مع الأثمّة. (رقم ١٠).

الإنسان وحالته المادّيّة

١) فقلت إنّ الحكمة خير من القوّة، ومع ذلك فحكمة المسكين مزدراة وكلامه غير مسموع. (الجامعة ٩: ١٦).

يقابلها من حكمة أحيقار:

١) يا بنيّ، مَن كان ملآن اليد يدعى حكيمًا ومحترمًا، ومَن كان فارغها يدعى مسيئًا ووضيعًا. (رقم ٤٤).

كلام الحكيم والجاهل

١) قلب الحكماء في بيت النياحة وقلب الجهّال في بيت الفرح. (الجامعة ٧: ٥).

يقابلها من حكمة أحيقار:

١) يا بنيّ خير لك أن يضربك الحكيم عصيًا كثيرة من أن يدهنك الجاهل بطيب العطر. (رقم ٧٣).

تأثير الحزن في القلب البشريّ

١) الصيت خير من الطيب، ويوم الموت خير من يوم الولادة. الدخول إلى بيت النايحة خير من الدخول إلى بيت الوليمة لأنّ ذاك منتهى جميع البشر فيجعله الحيّ في قلبه؛ الحزن خير من الضحك لأنّه بكآبة الوجه يصلح القلب. (الجامعة ٧: ٢-٤).

يقابلها من حكمة أحيقار:

١) يا بنيّ، الموت خير لرجل لا راحة له، وصوت النحيب في أذني الجاهل أفضل من الغناء والفرح. (رقم ٥٠).

٥ – سفر يشوع بن سيراخ

إنّ سفر ابن سيراخ هو أوسع من الكتب الحكميّة الأخرى، وهو ينتمي إليها وخاصّة سفر الأمثال، إذ يحتوي السفران على عناصر عديدة مشتركة بينهما. وإنّه يتألّف – شأن سفر الأمثال – من مجموعة حكم تارة قصيرة – وغالبًا – طويلة نسبيًّا. فإنّه دون ريب قد اتّخذ أكثرها، بعد أن طبعها بطابعه الخاصّ، من التراث العامّ المتداول الذي يرتقي إلى حكمة الشعوب المجاورة – الأشوريّون والآراميّون والمصريّون –. كما أنّنا نجد فيه ملاحظات لا تبعد عن أن تكون من وحي

اختباره الشخصيّ فتشكّل مع مقاطع أخرى ضربًا من الترجمة الشخصيّة؛ ويظهر لنا فيها ابن سيراخ بأوصاف أثارت قريحة الشرّاح.

فهو رجل موسر، مهتمّ بصالحه وتربية بنيه وزواج بناته. ونحسّ أنّ لديه إيمانًا قويًّا وتقوى عميقة وإن كانت قليلة الزهد. وإنّه اكتسب خبرة واسعة خلال حياة قضاها في الأسفار وركوب الأخطار واحتمال المحن. وقد جعلت منه معرفته للأسفار المقدّسة وحكم الحكماء، معلّمًا، وكتابه موجَّه خاصّة إلى تلاميذه الشبّان.

كتب النصّ الأصليّ لأثر ابن سيراخ في الفترة الواقعة بين سنتي ١٩٠-١٧٠ قبل الميلاد. ولم يعتبر من الأسفار القانونيّة في مجموعة الأسفار العبريّة المقدّسة. كما أنّ بعض الكنائس المسيحيّة تعتبره من الأسفار المنحولة (أبو كريفا). وأقدم ترجمة له إلى اليونانيّة عملت حوالي سنة ١٣٠ ق. م. كما أخذت عنها الترجمة الآراميّة المعروفة بالسبعينيّة مع وجود ترجمة آراميّة أخذت مباشرة عن العبريّة[٧].

إنّ كاتب هذا السفر مطلع تمام الاطّلاع على حكمة أحيقار - إن لم يكن سفر طوبيّا سابقًا تاريخيًّا لهذا السفر، واطّلع كاتبه على حكمة طوبيّا المتأثّرة هي الأخرى بحكمة أحيقار كما سنرى - فقد وردت فيه آيات كثيرة تتّفق وحكمة أحيقار نصًّا وروحًا بطريقة تفوق بقيّة الأسفار المقدّسة، الأمر الذي يبرهن على اهتمام آداب الحكمة العبريّة بهذه الحكمة الأشوريّة أبلغ الاهتمام.

وبين ابن سيراخ وأحيقار علاقة وثقى أهمّها ما يدور حول:

تربية الأولاد

١) إن دلّلت ابنك روّعك وإن لاعبته أحزنك. لا تضاحكه لئلاّ يغمّك وفي أواخرك يأخذك صريف الأسنان. لا تجعل له سلطانًا في مبادئه ولا تهمل جهالاته. إحنِ رقبته في صبائه وارضض أضلاعه ما دام صغيرًا لئلا يتصلّب فيعصيك فيأخذك وجع القلب. أدّب ابنك واجتهد في تهذيبه لئلاّ يسقط فيما يخجلك. (ابن سيراخ ٣٠: ٩-٣).

يقابلها من حكمة أحيقار:

١) يا بنيّ، لا تحرم ابنك من الضرب، لأنّ الضرب للصبيّ كالسماد للبستان، وكاللجام للبهائم، وكالقيد في رجل الحمار. (رقم ٢٢).

٢) يا بنيّ اخضع ابنك ما دام صغيرًا قبل أن يفوقك قوّة ويتمرَّد عليك فتخجل في مساوئه. (رقم ٢٣).

العلاقات الاجتماعيّة

١) الفم العذب يكثر الأصدقاء، واللسان

(٧) قاموس الكتاب المقدّس (بالإنكليزيّة) ج٤ ص ٥٣٩.

اللطيف يكثر المؤانسات. (ابن سيراخ ٦: ٥).

٢) وتكشف له أسرارها وتجمع فيه كنوزًا من العلم وفهم البرّ. (ابن سيراخ ٤: ٢١).

يقابلها من حكمة أحيقار:

١) يا بنيّ، اجعل لسانك حلوًا وكلامك عذبًا فإنّ ذنب الكلب يطعمه خبزًا، وفمه يكسبه رجمًا (ضربًا). (رقم ٣٧).

٢) يا بنيّ لا تدع صاحبك يدوس رجلك لئلاّ يدوس عنقك. (رقم ٣٩).

حفظ اللسان وصون الأسرار

١) احبس فضّتك وذهبك. واجعل كلامك ميزانًا ومعيارًا ولفمك بابًا ومزلاجًا. واحذر أن تزلّ به فتسقط أمام الكامن لك. (ابن سيراخ ٢٩: ٢٩-٣٠).

يقابلها من حكمة أحيقار:

١) يا بنيّ احصر الكلمة في قلبك تسعد، لأنّك إذا بدّلت كلامك، فقدت صديقك. (رقم ٥٢).

٢) يا بنيّ لا تطلق الكلمة من فمك حتى تروزها في قلبك، لأنّه خير للرجل أن يعثر في قلبه من أن يعثر في لسانه. (رقم ٥٣).

العلاقة بين الإنسان وصديقه

١) لا تقاطع صديقك القديم، فإنّ الحديث لا يماثله. (سيراخ ٩: ١٤).

يقابلها من حكمة أحيقار:

١) يا بنيّ، حام صديقك أمام السلطان لكي يمكنك أن تحاميه أمام الأسد. (رقم ٥٩).

النظرة إلى أفاضيل الرجال

١) أحسن إلى التقي فتنال جزاء، إن لم يكن من عنده فمن عند العليّ. (ابن سيراخ ١٢: ٢).

يقابلها من حكمة أحيقار:

١) يا بنيّ، مَن أنعم الله عليه، فاحترمه أنت أيضًا. (رقم ٦٤).

٢) لا توتر قوسك ولا تطلق سهمك على الصديق لئلاّ تفزع الآلهة لمساعدته فتردّ الضربة عليك. (رقم ١٢٦ من النصّ الآراميّ القديم).

سلوكه كإنسان مهذّب

١) لا تفتخر بهوان أبيك، فإنّ هوان أبيك ليس فخرًا لك. (سيراخ ٣: ١٢).

يقابلها من حكمة أحيقار:

١) يا بنيّ كن عادلًا بأحكامك في شبابك تنل كرامة في شيخوختك. (رقم ٣٧).

شعوره في مآتي الحياة

١) أي شيء أثقل من الرصاص وماذا يسمّى الأحمق. الرمل والملح والحديد أخفّ حملًا من الإنسان الجاهل. (ابن سيراخ ٢٢: ١٧ و١٨).

يقابلها من حكمة أحيقار:

١) يا بنيّ حملت الملح ونقلت الرصاص فلم أجد أثقل من اليدين، فليفِ الإنسان ولا يقترض. (رقم ٤٥).

٢) يا بنيّ حملت الحديد ونقلت الحجارة فلم أجد أثقل من رجل يسكن ببيت حميه. (رقم ٤٦).

الناس بين القوّة والضعف

١) لا تستحي أن تعترف بخطاياك ولا تغالب مجرى النهر. ولا تتذلّل للرجل الأحمق ولا تحاب وجه المقتدر. (ابن سيراخ ٤: ٣١ و٣٢).

يقابلها من حكمة أحيقار:

١) يا بنيّ لا تقاوم مَن كان في أوج قوته، ولا تناحر النهر في طغيانه (رقم ٦٥).

٢) الأسد يفترس الأيل وهو كامن في عرينه... ويسفك دمه ويأكل لحمه. هكذا هي معاشرة الناس. (رقم ٨٨، ٨٩ من النصّ الآراميّ القديم).

الأطماع البشريّة

١) عين البخيل لا تشبع من حظّه، وظلم السرير يضني نفسه. (سيراخ ١٤: ٩).

يقابلها من حكمة أحيقار:

١) يا بنيّ، إنّ عين الإنسان هي كينبوع ماء، ولا تشبع من الأموال حتّى تمتلئ بالتراب. (رقم ٦٦).

التطلّع إلى ما يفوق قدرته

١) مَن رمى حجرًا إلى فوق، فقد رماه على رأسه. والضربة بالمكر تجرح الماكر. (ابن سيراخ ٢٧: ٢٨).

يقابلها من حكمة أحيقار:

١) يا بنيّ لا تقتحم بستان العظماء، ولا تقرب بنات الكبراء. (رقم ٥٨).

٢) لا تقاوم مَن هو أعلى منك منزلة، ولا تنافس مَن هو أقوى منك، لأنّه سيأخذ نصيبك، ويضيفه إلى نصيبه، فانظر إلى هذه حالة الضعيف مع القويّ. (رقم).

الموازنة بين الحياة والموت

١) الموت أفضل من الحياة المرّة، أو السقم الملازم. (ابن سيراخ ٣٠: ١٧).

يقابلها من حكمة أحيقار:

١) يا بنيّ، الموت خير لرجل لا راحة له. وصوت النحيب في أذني الجاهل أفضل من الغناء والفرح. (رقم ٥٠).

الذكرى الصالحة

١) الحياة الصالحة أيّام معدودات، أمّا الاسم الصالح فيدوم إلى الأبد. (ابن سيراخ ٤١: ١٧).

يقابلها من حكمة أحيقار:

١) يا بنيّ، صديق قريب، خير من أخ بعيد، والاسم الجيّد خير من الجمال الباهر، لأنّ الاسم الجيّد يدوم إلى الأبد، والجمال يذوي ويزول. (رقم ٤٩).

عدم الشماته بالأعداء

١) لا تشمت بموت أحد، اذكر أنّا بأجمعنا نموت. (سيراخ ٨: ٨).

يقابلها من حكمة أحيقار:

١) يا بنيّ، لا تفرح إذا مات عدوّك. (رقم ٦٠).

٦ - سفر طوبيّا

يظهر كتاب «طوبيّا» كقصّة، لذا فقد اتّخذ مكانه في بعض المجموعات من الكتاب المقدّس اليونانيّ بين سفر عزرا - ناحوم، وسفر المكابيّين، هذه الكتب التي تتّبع التاريخ عن كثب.

وإنّه من السهل في الواقع أن نرى أنّ القصّة ليست إلاّ كسبيل إلى التهذيب والتعليم. وربّما أنّ اللاتين قد أحسّوا بذلك عندما وضعوا كتاب طوبيّا بعد عزرا وناحوم وقبل أيّوب والمزامير. ويتّفق لكاتب طوبيّا مرّات عديدة أن يتصرّف بحرّيّة بالتاريخ والجغرافية. وهكذا فإنّه يجعل من سنحاريب (٧٠٤-٦٨١ق.م) خلفًا مباشرًا لشلمناصر (٧٢٦-٧٢٢ق.م) مهملًا عهد سرجون الثاني (٧٢٠-٧٠٥ق.م)[٨].

ويحدّد راجيس على مسافة يومين عن أقبطان[٩]. في حين أنّ عدّة مئات من الكيلومترات تفصل ما بين المدينتين[١٠]. وسوف نشير إلى أخطاء أخرى كثيرة مماثلة في محلّها من البحث هذا.

وبينما يضع مؤلّفنا قصّته في حقبة بعيدة، فهو يقيم وزنًا للأفكار والعادات التي لن تظهر إلاّ فيما بعد، وحتّى تلك التي كان لعبرانيّي زمانه.

إنّه يأتي أن يكون مؤرّخًا بالمعنى الحديث للكلمة، أو أن يكون جغرافيًّا.

بيد أنّ قصّته هي في الوجه العام متناسقة جدًّا. فإنّ الإطار العامّ الذي فيه يعيش أبطاله هو إطار أوج المملكة الأشوريّة ثمّ انحطاطها، ولو أنّه يهمل أن يشير إلى الجلاء المزدوج ليهود الشمال، فهم مقيمون في نينوى وفي حدود ماداي، تلك الأمكنة التي جلي إليها أهالي مملكة الشمال[١١].

إنّ غايته هي دينيّة محضة. فهو إذ

---

(٨) راجع سفر طوبيّا ١: ١٥.

(٩) أقبطان، هي اليوم همذان في إيران وكانت إحدى عواصم هذه المملكة. (أنظر عزرا ٦: ٣، يهوديت ١: ١-١٤، ٢ مكابيّين ٩: ٣) وكان اليهود من الشمال قد نفوا إلى حدود ماداي.

(١٠) أنظر سفر طوبيّا ٥: ٦.

(١١) يخبرنا كتاب الملوك أنّ جلاء أهالي مملكة الشمال جرى على دفعتين، في الدفعة الأولى قام تغلاتفلاصر في سنة ٧٣٤ق.م بإجلاء أهالي الجليل الأعلى وجميع حدود نفتالي (٢ ملوك ١٥: ٢٧-٣٠). وبعد سقوط السامرة سنة ٧٢١ق.م انتصر شلمنصر على بقيّة أهالي الشمال ثمّ جلاهم خلفه سرجون الثاني (٧٢١-٧٠٥ق.م) إلى أشور العليا وحتّى حدود ماداي (ص ملوك ١٧: ١-٨). يضع كاتبنا الحوادث هذه حول الانتصارات التي أحرزها شلمنصر. ومن الممكن أيضًا قد أرسل سجناء إلى أشور. فقد جاء في عنوان الكتاب: «كتاب أعمال طوبيّا بن طبوئيل... من سبط نفتالي الذي سيق سجينًا في أيّام شلمنصر ملك أشور. (طوبيّا ١: ١-٢).

يروي لنا قصّة طوبيّا الذي يعني اسمه واسم أبيه «صالح هو الله» يريد أن يبجل صلاح الله تجاه اليهود. وأن يبيّن لنا كيف يمارس الله هذه الجودة سواء كان في أشورام في إيران البعيدة. في كلّ مكان ترعى عيون الله الصالحين، ومن كلّ مكان تصعد إليه صلوات الذين يثقون به ويستجيب لهم.

فجودة الله تجاه عائلة جليلة أمينة، والطريقة التي بها ينجيها، هي بالنسبة إليه الضمان والرمز لبواهر كثيرة. فالله برحمته سيخلّص جميع ذويه وبالأحرى جميع الصدّيقين. سوف يبعث أورشليم جديدة تستقبل الناس من الشعوب قاطبة.

سفر طوبيّا وحكمة أحيقار

منذ أن أعلن الأستاذ جورج هوفمان العلاقة بين سفر طوبيّا[١٢] وحكمة أحيقار سنة ١٨٨٠م[١٣]. والعلماء المعنيّون ماضون في دراسة هذه العلاقة، دراسة دقيقة. غير أنّهم اختلفوا على قضايا كثيرة في تلك الدراسات، ونحن لا يهمّنا ذلك في بحثنا هذا[١٤]، لأنّ غايتنا تنحصر في الاتّفاق الكائن بينه وبين حكمة أحيقار، إنّما يجب أن نضمّ رأينا إلى آراء الذين قرّروا أنّ نصّه الأصليّ إنّما كتب بالآراميّة بدليل وجود مصطلحات وكلمات كثيرة آراميّة قديمة في النسخ والترجمات الحديثة التي يرتقي تاريخها إلى القرن الخامس الميلاديّ[١٥].

إنّ سفر طوبيّا أيضًا لم تعتبره الأجيال اليهوديّة المتأخّرة بين الأسفار القانونيّة والأغلب لأنّه كتب بالآراميّة، وعليه يعتبر لديهم «احميا» إلاّ أنّ مجمع قرطاجنه سنة ٣٥٧م اعتبره قانونيًّا فاعترفت به الكنيسة المسيحيّة[١٦]؛ أمّا الكنائس الشرقيّة اعتبرته من جملة الأسفار المنحولة (أبو كريفا) ولم يثبت في معظم طبعاتها.

إنّ الاتّفاق التامّ بين سفر طوبيّا وحكمة أحيقار واضح، بل إنّ المتتبّع

---

(١٢) يبدو لنا سفر طوبيّا كمجرّد حكاية محصورة بين عائلتين، عائلة طوبيّا البارّ وعائلة نسيبه راعوئيل. كان طوبيّا وهو الأب من سبط نفتالي يقيم في نينوى بين المسبيّين من مملكة الشمال بعد سقوط السامرة ويعيش بأمانة ومحبّة الله، لكنّ الله سمح امتحانًا له، بأن يفقد نظره ويصبح عرضة السخرية من حوله. لكنّ الله أراد أن يتدارك الأمر فألبس الملاك رافائيل شكلًا بشريًّا وأرسله إلى طوبيّا الأب فرضي هذا أن يكون رفيق سفر لابنه المدعوّ أيضًا طوبيّا. وعند عودته خلّص طوبيّا آباه من العمى بفضل نصائح الملاك. وانتهى كلّ شيء بالفرح العامّ بعد أن أظهر الملاك حقيقته وتوارى.

(١٣) جورج هوفمان، ط لايبزك ١٨٨٠، ص ١٨٢ عن بولس بهنام، أحيقار الحكيم، ص ١٦٤.

(١٤) إنّي الآن بصدد وضع دراسة مفصّلة عن العلاقة بين الفكر العراقيّ الدينيّ القديم وأسفار موسى وغيرها من أسفار العهد القديم بعنوان «التوراة البابليّة».

(١٥) قاموس الكتاب المقدّس، النسخة الإنجليزيّة ٩: ٧٨٨.

(١٦) قاموس الكتاب المقدّس، النسخة الإنكليزيّة ٩: ٧٨٩.

المتحقّق قد يجد فيها أثرًا واحدًا في حلتين مختلفتي الألوان، وخاصّة ما ورد في الترجمة يذكر أحيقار بالذات ويجعله كاتب السفر ابن أخ طوبيّا، فقد ورد فيها ما تعريبه:

«وملك سرحدون ابنه (ابن سنحاريب) فنصب آحيور (أحيقار) بن حننائيل ابن أخي (وزيرا) على مالية مملكته وعلى جميع أعمالها، واستعطف أحيور عنّي فعدت إلى نينوى. أمّا أحيور فقد كان ساقيًا وحاملًا للختم ومدبّرًا ومحاسبًا، ونصبه سرحدون من جديد، وكان من إخوتي».

ثم يذكر خيانة (عكب) وأشرار نينوى ويشير إليه بالخروج منها فيقول:

«أخرج من نينوى فإنّ فيها أشرارًا كثرًا ففيها خان عكب عقيقار[17] الذي ربّى طوبيّا[18] ولم يتمكن من أهباطه إلى الأرض، بل هبط عكب نفسه إلى الظلام وخرج عقيقار إلى النور ونجا من الفخّ الذي أخفاه له عكب، وعكب نفسه هبط إلى الحضيض».

فأنت ترى - عزيزي القارئ - في هذه الأسطر الواردة في سفر طوبيّا علاقة القربى القريبة بين طوبيّا وأحيقار، ومنزلته في المملكة، الأمر الذي ينطبق تمام الانطباق على ما ورد في قصّة أحيقار الآراميّة قديمها وحديثها، وتلحظ خيانة نادان بأجلى مظاهرها تمامًا كما وردت في القصّة ذاتها. وهنا ظاهرة بسيطة وهي اختلاف اسم أحيقار، فإنّ كاتب سفر طوبيّا يسمّيه (أحيور) في الفصل الأوّل و(عقيقار) في الثاني.

أمّا نادان، فلا صلة بين اسمه هذا وبين اسمه الوارد في سفر طوبيّا. فاسمه هنا (عكب)، ولعلّ عكب صفة لنادان، وهي متطوّرة من كلمة (عقب) الآراميّة، ومعناه المندحر أو الخدّاع، الغاش، المكّار، أو بالحري الخائن، وهي صفات تنطبق على نادان وخيانته[19].

إنّ اتّجاه أثري طوبيّا وأحيقار واحد. فكلاهما يبدأآن من نقطة واحدة، هي عمل البرّ وخاصّة الرحمة أو الصدقة، ويلتقيان عند نقطة واحدة كنتيجة وهي نجاة كلّ منهما من محنة تعرّض لها، ناهيك عن الاتّفاق الكامل في سياق إصدار الحكمة. والنصيحة نصًّا وروحًا، فطوبيّا وأحيقار يلقي الحكمة على ابن أخته نادان، في حين طوبيّا يلقيها على ابنه طوبيّا أيضًا. إلاّ أنّ نادان يختلف عن طوبيّا الابن كثيرًا لأنّه

---

(١٧) سفر طوبيّا بحسب الترجمة السبعينيّة الموجودة في كنيسة العذراء في ديار بكر سنة ١٤٩٢م والمعروف أنّ النصّ اليونانيّ يسمّي أحيقار AKIKARUS (أكيكاروس) وعنها أخذت كلمة عقيقار. (سفر طوبيّا ١: ١٢ و١٤: ١٠).

(١٨) أظنّه يريد به طوبيّا الابن.

(١٩) بولس بهنام، أحيقار الحكيم، ص ١٦٤-١٦٨.

ظهر خائنًا ناكرًا للجميل، بينما طوبيّا الابن كان أمينًا للنهاية. الأوّل ازدرى الحكمة وضرب بالنصيحة عرض الحائط فلاقى نتيجة عمله نهاية حقيرة مهلكة. والثاني تقيّد بها تقييدًا تامًّا فعاش سعيدًا نتيجة أمانته وسيره في طريق الحكمة والبرّ، واستنادًا إلى كلّ ذلك ربّما يجد الباحث المدقّق طوبيّا (أحيقار) عبريًّا، وفي أحيقار (طوبيّا) أشوريًّا.

إنّ كاتب قصّة أحيقار ومدبج حكمته لا يذكر طوبيّا لا من قريب ولا من بعيد، أمّا كاتب سفر طوبيّا فإنّه يذكر أحيقار بالذات - كما رأينا - ويجعله ابن أخيه حننائيل، فهو لديه عبريّ لا آراميّ ولا أشوريّ مؤمن بالّه واحد لا وثنيّ مشرك.

وإذا أضفنا إلى العلاقة المعنويّة بين حكمة أحيقار وقصّته من جهة، وبين سفر طوبيّا من جهة ثانية، علاقة الأسلوب، ننتهي إلى النتيجة المقرّرة بأنّ سفر طوبيّا هو قصّة أحيقار وحكمته بثوب يهوديّ، ولا فرق بينهما إلاّ التباين الإسميّ. فأحيقار آشوريّ صالح ولكنّه وثنيّ، وطوبيّا يهوديّ مؤمن بالله نسج على منوال الأبرار الأوّلين، وكاتب سفره متأثّر إلى حدّ بعيد بمأساة أحيقار وصبره وحكمته، الأمر الذي حدا به إلى صياغة هذا السفر بالأسلوب الذي نراه.

وإذا تركنا الناحية اللغويّة لهذا السفر، وعدنا إلى المقارنة الحكميّة بينه وبين بقيّة الآثار كسفري ابن سيراخ من جهة، وبين قصّة أحيقار وحكمته من جهة ثانية، نجد أنّ هذه الآثار الثلاثة تتّفق اتّفاقاً جامعًا بآن واحد.

طوبيّا وأحيقار

يتّضح النوع الأدبيّ في كتاب طوبيّا عند مقابلته بكتاب حكمة أحيقار فيتضمّن سفر طوبيّا على غرار سفر أحيقار، مجموعة من القصص تمّت بصلة إلى الفولكلور الشرقيّ الذي فيه أدخلت مجموعات من الحكم[٢٠].

إنّ كتاب أحيقار الذي جاء مشحونًا بالمعتقدات المشركة السائدة في الأوساط الشرقيّة، أعطى بعدئذ مدلولًا توحيديًّا. فقد اهتمّ به يهود أتقياء، ثمّ رهبان مسيحيّون، وحاولوا أن يجعلوه أرثوذكسيًّا مقبولًا لدى عباد الإله الواحد الأحد.

إنّ أحيقار الشرقيّ هو شخصيّة يحتلّ، كما احتلّ طوبيّا وقتًا ما مكانة[٢١] مرموقة في بلاط ملك أشور. ففي مطلع

(٢٠) توجد حكم طوبيّا في (طوبيّا ٤: ٣-٢٠ و١٢: ٦-١٠). أمّا حكم أحيقار التي تشبه بعضها حكم طوبيّا فقد حفظها الأخلاقيّون اليونان حسب ما جاء في شهادة أقليمندس الإسكندريّ ودموقريطس (٤٩٦-٤٦٠ق.م) وميناندور (٣٤٢-٢٩١ق.م).

(٢١) سفر طوبيّا ١: ١٣.

قصّته يظهر لنا بصفة «أمين خزينة سنحاريب وكاتبه» ثمّ يلعب الدور عينه لدى أسرحدون.

وبعد أن أنفق بدون جدوى كلّ خزائن حكمته على ابن أخته نادان أو ناداب يجد نفسه «مزجى في الظلمات» من جرّاء دسائس ابن أخته الذي يريد أن يحتلّ وظيفته لدى الملوك. ولكن أحيقار ينجو من الموت ويعود مثل طوبيّا إلى النور بفضل أعماله الصالحة وحكمته.

من الأكيد أنّ كاتب سفر طوبيّا قد عرف كتاب أحيقار الذي عثر عليه خلال القرن التاسع عشر، وقد قرأه مثل سائر اليهود الاتقياء. فهو يشير إليه مرّات عديدة، ويطيب له أن يجعل من أحيقار نسيبًا لبطله ومحسنًا إليه.

وبفضل وساطة أحيقار يرجع طوبيّا إلى نينوى، بعد أن خسر هو أيضًا ثقة ملوك أشور: «فعاد طوبيّا إلى منزله»[٢٢].

وعندما يصاب طوبيّا بالعمى يتولى أحيقار الاهتمام به: «قد أقاته أحيقار مدّة سنتين، قبل ذهابه إلى بلاد عيلام»[٢٣].

ويأتي أحيقار ثانية ليسلّم على طوبيّا، ويرافقه ناداب كما تروي القصص الشرقيّة، وذلك في وقت المباهج التي تلي زواج ابنه عندما ابتهج بعودة النور إلى عينيه من جديد[٢٤].

في نهاية الكتاب، يذكر طوبيّا ابنه بمثال أحيقار الجميل وبالقصاص النموذجيّ الذي أنزله بابن أخته: «أنظر يا بنيّ كلّ ما صنعه ناداب بأحيقار الذي كان قد ربّاه. ألم يلقه حيًّا في الأرض؟ ولكنّ الله قد كساه بالعارّ جهرًا. لقد خرج أحيقار إلى النور ودخل ناداب في الظلمات الأبديّة، لأنّه كان قد بحث أن يقتل أحيقار. ولأنّ أحيقار كان يصنع الصدقة، فقد نجا من فخّ الموت الذي أهلكه. أنظروا الآن يا أولادي ماذا تفعل الصدقة وما يفعله الظلم، إنّه يقتل»[٢٥].

فكلّ هذه الإشارات إلى كتاب أحيقار، تبيّن بوضوح كيف يريد كاتبنا أن يلقي درسه الدينيّ حسب نهج القصص الشرقيّة المنتشرة آنذاك كثيرًا والحاضرة في جميع القلوب[٢٦].

أوجه الشبه بين سفر طوبيّا وقصّة أحيقار

الواقع - كما أشرنا سابقًا - أنّ سفر طوبيّا حسب مخطوطة سيناء والفاتيكان

(٢٢) سفر طوبيّا ١ : ٢٥.
(٢٣) سفر طوبيّا ٢ : ١٠.
(٢٤) سفر طوبيّا ١١ : ١٨ و١١ : ١٩.
(٢٥) سفر طوبيّا ١٤ : ١٠-١١.
(٢٦) ج. ك. كوربيّون، إقرأ طوبيّا، ترجمة الأب يوحنّا عيسى، بيروت ١٩٧٥ سلسلة كلام الله رقم ٢٢ ص ١٣-١٧.

(النصّ اليونانيّ) هو قصّة أحيقار بشكلها اليهوديّ. يحاول الكاتب أن يجعل أحيقار ابن أخ طوبيّا - واسم أخيه عنئيل - فهو يهوديّ لا أشوريّ، وهذا مرفوض.

أمّا مغزى القصّة الخلقيّ فيكاد يكون واحدًا وإن اختلفت الألفاظ، ويظهر جليًّا أنّ سفر طوبيّا توكيد على هذا العدد:[٢٧] «الصدقة تنجّي من كلّ سوء ومن الموت، ولا تدع النفس تصير إلى الظلمة». فكأنّ كاتب سفر طوبيّا يتذكّر أنّ أحيقار طرح في غياهب الدهليز ولكنّ الله نجاه لصدقاته.

أمّا أحيقار فإنّه يقول لنادان، عندما كان يوبّخه على شرّ صنيعه: «إنّ الذي نجّاني من الموت وخلّصني من البلاء العظيم هو «برّي وخلاصي» واللفظة التي يستعملها في النصّ السريانيّ تعني الاستقامة والبرّ والتقوى ونحن نعلم أنّ في التعليم الساميّ الحكميّ يستعملون لفظة «صدق» و «صدقة» كمرادف للبرّ والصلاح».

قلنا سابقًا أنّ التوكيد في قصّة أحيقار هو أنّ مَن حفر حفرة لأخيه وقع فيها. ولكن هناك مغزى آخر في القصّة وهو أنّ البرّ والصدقة والتقوى جميعها تنجّي الإنسان من الموت والهلاك. وهذا المغزى الأخير هو المغزى ذاته الذي نجده في سفر طوبيّا.

وهنالك شبه كبير بين نصائح طوبيّا لابنه وبين تعليم أحيقار لابن أخته نادان، لا بل أحيانًا نجد أنّ الكلام يتّفق لفظًا. وها نحن نثبت لك - عزيزي القارئ - بعض نصوص من الفصل الرابع من سفر طوبيّا[٢٨] حيث يعطي طوبيّا نصائحه لابنه قبل سفره إلى راجيس:

«إسمع يا بنيّ كلمات فمي، واجعلها في قلبك مثل الأساس... فليكن الله في قلبك جميع أيّام حياتك. واحذر أن ترضى بالخطيئة وتتعدى وصايا الربّ إلهنا. تصدّق من مالك ولا تحوّل وجهك عن فقير، حينئذ وجه الربّ لا يحوّل عنك. كن رحيمًا على قدر طاقتك. إن كان لك كثير فابذل كثيرًا. وإن كان لك قليل فاجتهد أن تبذل القليل عن نفس طيبة، فإنّك تدّخر لك ثوابًا جميلًا إلى يوم الضرورة، لأنّ الصدقة تنجّي من كلّ خطيئة ومن الموت ولا تدع النفس تصير إلى الظلمة... احذر لنفسك يا بنيّ من كلّ زنى، ولا تتجاوز امرأتك مستبيحًا معرفة الإثم أبدًا. ولا تدع الكبر يستولي على أفكارك أو أقوالك لأنّ الكبر مبدأ كلّ هلاك... كلّ ما تكره أن يفعله

---

(٢٧) هذا هو نصّ العدد ١١ في الإصحاح الرابع من سفر طوبيّا كما جاء في الطبعة العربيّة اليسوعيّة. أمّا في الأبوكريفا فيرد في العدد العاشر: «الصدقة تنجّي من الموت».

(٢٨) لقد اعتمدنا في سرد النصوص هنا على نسخة «الكتاب المقدّس، العهد القديم» طبعة بيروت ١٩٦٠ للآباء اليسوعيّين.

غيرك بك فإيّاك أن تفعله أنت بغيرك. كلّ خبزك مع الجياع والمساكين، واكس العراة من ثيابك. ضع خبزك وخمرك على مدفن البارّ ولا تأكل ولا تشرب منهما مع الخطأة. التمس مشورة الحكيم دائمًا».

إنّ جميع هذه النصائح والتعاليم يعطيها أحيقار لابن أخته نادان، ولكن من الطبيعيّ أن نجد فروقًا طفيفة، وذلك لأنّ كاتب سفر طوبيّا يحاول أن يجعل من قصّة طوبيّا قصّة يهوديّة، ومن تعاليمه تعاليم يهوديّة. فإنّ كاتب سفر طوبيّا مثلًا يحذّر من شرك المرأة البغي ولكنه يصرّ بصورة خاصّة على التزوّج من بنات القوم لا من الأجنبيّة. ويذكر طوبيّا ابنه أنّ أحبار اليهود القدامى سافروا الأميال الشاسعة ليتزوّجوا يهوديّات، فلا يجوز الزواج من امرأة خارج القبيلة.

ونلاحظ أحيانًا أنّ بعض أقوال أحيقار أقرب فهمًا من تعاليم طوبيّا المحوّرة لتلائم العقائد اليهوديّة، مثلًا يقول طوبيّا:[٢٩] «إسكب خبزك على مدافن الأتقياء، ولكن لا تعط شيئًا منها إلى الأثمة»[٣٠].

أمّا أحيقار (في النصّ السريانيّ) فيقول: «يا بنيّ، اسكب خمرك على قبور الصالحين فإنّ هذا أفضل من أن تشربه مع الأثمّة».

وواضح أنّ قول طوبيّا «اسكب خبزك» غلط. فالسكب يكون للخمر. وفضلًا عن هذا فإنّ عبارة طوبيّا لا معنى لها إذا لم تقارن بقول أحيقار، فكأنّ قول طوبيّا مأخوذ عن أحيقار، ولكن طرأ على النصّ ما شوّهه.

ومن أوجه الشبه الشديد بين أحيقار وطوبيّا، أنّ مسرح القصّتين بلاد آشور وما جاورها من عيلام وميديا.

في نينوى عاش طوبيّا منفيًّا، وفي نينوى عاش أحيقار وخدم أسرحدون وسنحاريب. ويسجن أحيقار ويظلم، ولكن «صدقاته» نجته من الموت، كذلك نجّت الصدقات طوبيّا من الموت.

وزمن القصّتين واحد: في عهد المملكة الأشوريّة أيّام عظمتها.

والآن نورد فيما يلي خمس نقاط هامّة تتّفق فيها الآثار اتّفاقًا تظنه اتّفاقًا النصّين، استقى الواحد من الآخر الفكرة كاملة غير منقوصة، وأحيانًا التعبير ذاته، الأمر الذي لا يمكن أن يتيسّر في النصّين عفويًّا أو توارد خواطر، والأحقية والأثر هو للنصّ الأقدم الذي استقى منه النصّ اللاحق، فتكون النتيجة إذن الأثر الواضح لحكمة أحيقار بنصّ طوبيّا لأنّه يسبقه في القدم عدّة قرون من حيث التدوين. . .

---

(٢٩) سفر طوبيّا ٤ : ١٧ في طبعة لندن، وفي الطبعة العربيّة اليسوعيّة يرد في ٤ : ١٨.

(٣٠) في الطبعة اليسوعيّة: «ضع خبزك وخمرك على مدفن البارّ، ولا تأكل ولا تشرب منهما مع الخطأة».

أ - النظر إلى أعمال البرّ

إنّ النصّين متّفقان تمام الاتّفاق على وجوب ممارسة الإنسان أعمال البرّ والتقوى والإمعان في الصدقة والإحسان أو الرحمة. فإنّ الرحمة والصدقة أساس جميع أعمال البرّ في نظر الكاتبين ترضي الله وتكون سببًا هامًّا لعفوه تعالى عن أخطاء الإنسان.

يقول طوبيّا: «لأنّ الصدقة تنجّي من كلّ خطيئة ومن الموت ولا تدع النفس تصير إلى الظلمة»[31] (طوبيّا ٤ : ١١).

ويقول أحيقار: «يا بنيّ، إنّ الأثيم يسقط ولا ينهض، والبارّ لا يتزعزع لأنّ الله معه». (رقم ٢١).

ب - إحترام الموتى

يقول طوبيّا: «ضع خبزك وخمرك على مدفن البارّ، ولا تأكل ولا تشرب مع الخطأة»[32] (طوبيّا ٤ : ٨).

ويقول أحيقار: «يا بنيّ اسكب خمرتك على قبور الصدّيقين ولا تشربها مع الأثمّة» (رقم ١٠).

ج - التقوى

تعتبر التقوى حفظ وصايا الله والتقيّد بأوامره ونواهيه:

يقول طوبيّا: «وأنت فليكن في قلبك جميع أيّام حياتك، واحذر أن ترضى بالخطيئة وتتعدّى وصايا الهنا» (طوبيّا ٤ : ٦).

ويردف قوله: «كلّ ما تكره أن يفعله غيرك بك فإيّاك أن تفعله أنت بغيرك»[33].

ويقول أحيقار: «يا بنيّ لا تجدف على الله يوم محنتك لئلاّ يغضب عليك حين يسمعك» (رقم ٣٣).

ويردف: «يا بنيّ كلّ مَن لا يقضي قضاء عادلًا يغضب الله» (رقم ٥٦).

وقال أيضًا: «يا بنيّ إذا كنت كاهن الله فاتّقه، واظهر بحضرته طاهرًا، ولا تبرح من أمامه» (رقم ٦٣).

د - صيانة النفس من الخطيئة

يشدّد على ذلك طوبيّا بقوله: «إحذر لنفسك يا بنيّ من كلّ زنى ولا تتجاوز امرأتك مستبيحًا معرفة الإثم أبدًا»[34] (طوبيّا ٤ : ٣).

---

(٣١) ويقول ابن سيراخ: «الإخوة والعون لساعة الضيق، لكن نصرة الرحمة فوق كليهما». (٤٠ : ٢٤).

(٣٢) ويطلق ابن سيراخ النصيحة لاحترام الموتى عامّة فيقول: «إذرف الدموع على الميت... وكفّن جسده كما يليق ولا تهاون بدفنه». (٣٧ : ١٦).

(٣٣) ويقول ابن سيراخ: «ترو في وصاياه، تأمّل كلّ حين فهو يثبت قلبك وينيلك ما تتمنّاه من الحكمة».

(٣٤) ويقول ابن سيراخ: «لا تلق المرأة البغي لئلاّ تقع في إشراكها، لا تألف المغنّية لئلا تصطاد بفنونها، لا تتفرّس في العذراء لئلاّ تعثرك محاسنها. لا تسلّم نفسك إلى الزواني لئلاّ تتلف ميراثك. لا تسرح بصرك في أزقّة المدينة ولا تتجوّل في أخليتها. أصرف طرفك عن المرأة الجميلة ولا تتفرّس في حسن الغريبة: فإنّ حسن المرأة أغوى كثيرين وبه يلتهب العشّاق كالنار» (٩ : ٣-٨).

ويقول أحيقار: «يا بنيّ لا ترفع نظرك إلى امرأة متبرّجة متكحّلة ولا تشتهها في قلبك، لأنّك إن أعطيتها كلّ ما ملكت يداك لن تجد فيها خيرًا وترتكب إثمًا أمام الله» (رقم ٥).

هـ - أسلوب الحكمة

يرسل كلّ منهم تعليمه إلى (ابنه) بالطريقة الشرقيّة المتّبعة دائمًا في النصح والإرشاد ويقول (يا بنيّ)، وهذا ما نجده لدى لقمان الحكيم عند إرشاده لابنه أيضًا كما ورد في القرآن.

فيقول طوبيّا: «إسمع يا بنيّ، كلمات فمي واجعلها في قلبك مثل الأساس»[٣٥] (طوبيّا ٤ : ٢).

ويقول أحيقار في مطلع حكمته: «إسمع يا بنيّ نادان، وتفهّم تعليمي واذكر كلامي ذكرك لكلام الله» (رقم ١).

ملخّص قصّة طوبيّا[٣٦]

كان طوبيّا أحد المنفيّين إلى بلاد آشور، اسم زوجته سارة، واسم ابنه طوبيّا، أي أنّه سمّاه على اسمه، وكان رجلًا صالحًا تقيًّا لم يتدنّس في أثناء نفيه برجس الأمم، بل حافظ على نقاوة دينيّة. وكان حظّه في النفي يتأرجح بين فترات حسنة وبين فترات أخرى سيّئة. ففي عهد شلمناصر أوتي حظًّا كبيرًا فجمع مالًا وفيرًا ووزّعه على الفقراء واليتامى ودفن الموتى[٣٧]. ثمّ إنّه أودع شيئًا من المال عند صديق له في مدينة راجيس بميديا. وما أن ملك سنحاريب حتّى فارقه الحظّ فحكم عليه بالموت، ولكنّه هرب واختبأ. ولكن عندما عيّن سرحدوم (أسرحدون) أحيقار ابن أخيه سرّ وفرح بذلك. وكان أحيقار عند حسن ظنّ عمّه.

في ذات يوم، بعد أن عاد من دفن الموتى الفقراء، نام قرب حائط فوقع ذرق من عشّ خطّاف على عينيه فغشيهما بياض وعميتا. فانقطع طوبيّا إلى الصلاة. وعندما كان يصلّي مرّة في علّيّة كانت في الوقت ذاته فتاة صبيّة تدعى سارة في مدينة راجيس تصلّي أيضًا في علّيّتها ليجنّبها الله تعيير جواريها إذ إنّها كانت قد زفّت سبع مرّات، ولكنّ الأزواج السبعة ماتوا قبل الزفاف.

عندما افتقر طوبيّا ذكر ماله المودع في

---

(٣٥) ويقول ابن سيراخ: «إسمع يا بنيّ وتعلّم العلم ووجّه قلبك إلى كلامي. (١٦-٢٤).

(٣٦) إختصرنا النصّ بحسب ما ورد في طبعة اليسوعيّين العربيّة للعهد القديم، المطبعة الكاثوليكيّة، بيروت، ١٩٦٠.

(٣٧) إنّ التشديد على (الصدقات) في هذا السفر جعل كثيرين ممّن درسوا القصّة يعتقدون أنّ مغزى القصّة يدور على عمل الخير والصدقات وأنّ هذا هو الذي ينجّي الإنسان من أثمه وخطيئته. ويرى بعضهم أنّ التوكيد على الأجر الذي يناله المرء من العناية بدفن الموتى.

راجيس فطلب إلى ابنه طوبيّا أن يسافر إلى راجيس[٣٨] إلى عند غبائيل صديقه لاسترداد المال. وطلب إلى ابنه أن يفتّش عن رفيق ودليل. كان الدليل الذي قبضه له الله الملاك رفائيل[٣٩]، أحد الملائكة السبعة الذي يخدمون الله. ولكنّ الملاك غيّر اسمه إلى عزريا[٤٠]، وادّعى أنّه ذاهب إلى راجيس إلى غبائيل. وسافر الاثنان، وفي الطريق اصطادا حوتًا فطلب عزريا (الملاك رفائيل) من طوبيّا أن يحتفظ بالكبد والقلب والمرارة لأنّ لها قوّة على الشفاء إذا أحرقت ودخّن المريض بدخانها.

وعند وصولهما إلى راجيس نزلا عند غبائيل أبي سارة. وأسرّ عزريا إلى طوبيّا، أنّها فتاة غنيّة ويحسن به أن يتزوّجها لأنّها فتاة صالحة تقيّة.

ثمّ إنّ عزريا يشفيها من شيطان كان يصرعها وذلك بتبخيرها بدخان كبد الحوت وقلبه ومرارته. وقيد الملاك الشيطان وأرسله إلى مصر العليا.

ويعود الثلاثة عزريا وطوبيّا وزوجته سارة إلى نينوى حيث كان الأبوان يصلّيان إلى الله كي يردّ إليهما ابنهما. ويشفي ملاك الربّ طوبيّا من عماه ويعيش الجميع بسعادة وفرح.

يحاول طوبيّا الأب أن يعطي عزريا مالًا ويشكره على صنيعه، ولكن عزريا يقول له: لا تشكرني بل ليكن شكرك لله.

أمّا في مخطوطة سيناء (وتتّفق معها مخطوطة الفاتيكان) فإنّ طوبيّا يتكلّم بضمير المتكلّم مثل أحيقار، ويقصّ علينا أنّ أهله وعشيرته نفتالي نسوا الله وارتدوا إلى عبادة العجل، ثمّ يقصّ علينا خبر ابن أخيه أحيقار ابن عنئيل، وكيف أنّ (سرحدوم) أقامه مشيرًا ومدبّرًا لمملكته، وكيف أنّ أحيقار ابن أخيه، شفع له في نينوى وأعاله. ويخبرنا أيضًا عن «ناداب»[٤١] ابن أخت أحيقار وكيف أنّه سعى إلى قتل خاله، ولكنّ الله جازى ناداب بأن أوقعه في الحفرة التي حفرها.

أمّا أحيقار فنجا من الموت (لصدقاته) أي لبرّه وتقواه.

---

(٣٨) أو إلى أكبتانا حسب رواية أخرى. وأكبتانا مدينة في ميديا يعزى بناؤها إلى الملكة سميراميس، وموقعها هو موقع همدان الحالية بإيران.

(٣٩) معنى اسم الملاك «الله يشفي» وهو اسم يلائم القصّة أشدّ الملاءمة لأنّه سفى سارة من شيطانها وسفى طوبيّا من عماه.

(٤٠) معنى الاسم «الله يساعد ويعين» وهو اسم يلائم المهمّة التي قام بها: إعانة طوبيّا الابن على الوصول إلى راجيس.

(٤١) وأحيانًا «نادام» ولا شكّ أنّه نادان الوارد اسمه في قصّة أحيقار.

أحيقار وسفرا دانيال * وعزرا

ليست العلاقة بين أحيقار ودانيال محصورة في متون حكمة معيّنة، كما كانت الحال في علاقة أحيقار ببقيّة حكماء العهد القديم، بل هي وجه الشبه بين الحكيمين أحيقار ودانيال، وذلك في النقاط التالية:

أولًا: كون الرجلين حكيمين بل احكم أهل زمانها.

ثانيًا: توقّف جميع حكماء ملك أشور عن الإجابة على أسئلة فرعون حتّى نادان نفسه يصرّح بأنّ هذه الأمور لا يستطيع حلّها إلاّ الآلهة[42]. كذلك توقّف جميع حكماء بابل وسحرتها وعرّافيها، عن تفسير أحلام الملك نبوخذنصر[43] فيظهر أحيقار بعد محنته ويحلّ جميع المشكلات ويقوم برسالة عظمى لسيّده ملك أشور عند فرعون مصر[44]. ومثله دانيال ينبري فيفسّر أحلام نبوخذنصر[45]. وهكذا يفوز الرجلان بحظوة عظيمة كلّ عند ملكه.

ثالثًا: يبتلي كلّ منهما بواش، ووشاية. فأحيقار يخونه ربيبه وابن أخته نادان ويلفق الأكاذيب ضدّه، وينكبه الملك ويصدر الأمر بقتله، إلاّ أنّ القائد نبوسمسكن يذكر جميل أحيقار معه فيحتفظ به حيًّا، ومع ذلك لا يمكنه إلاّ أن يخفيه في مخدع داج تحت الأرض يحرم فيه الحكيم كلّ أسباب الحياة الطبيعيّة من نور وهواء وراحة حتّى يحتاج الملك إلى حكمته ومشورته الصائبة، فيخرج منتصرًا بعد آلام شديدة وصبر جميل[46].

ومثله دانيال يشي به أصدقاءه لدى الملك فيغضب عليه الملك ويلقيه في جب الأسود الضارية لتفترسه إلاّ أنّ تقواه، وفضيلته تنقذانه من التهلكة فتتوقّف الأسود عن افتراسه ويندم الملك على فعلته فيخرجه من الجبّ منتصرًا ويلقى فيه الوشاة[47].

رابعًا: كلّ منهما تنقذه تقواه من المحنة التي سبّبها له الوشاة ويرتفع عند

---

* دانيال النبيّ، شابّ يهوديّ اقتيد أسيرًا إلى بابل مع مَن سباهم نبوخذنصر في الجيل السادس قبل الميلاد (٥٨٧ق.م) وتربّى في بلاط الملك الوثنيّ واشتهر هناك كحكيم يحسن كلّ الفنون والمعارف دون أن يضرّ بأمانته الدينيّة المثاليّة. حصل بالصلاة على معجزات باهرة ونال موهبة تفسير الأحلام ومعرفة المستقبل وفهم مقاصد الله.

(٤٢) راجع قصّة أحيقار.

(٤٣) سفر دانيال ٢: ١.

(٤٤) راجع قصّة أحيقار.

(٤٥) سفر دانيال ٢: ٩-٤٨.

(٤٦) راجع قصّة أحيقار.

(٤٧) سفر دانيال ٦: ١١-٢٨.

مليكه أكثر من ذي قبل.

إنّ العلاقة بين سفر دانيال وأثر أحيقار لا تتوقّف عند هذا الحدّ بل هناك أمر هامّ جدًّا، وهو أنّ دانيال كتب بعض فصول نبوّته باللغة الآراميّة البابليّة التي كتبت فيها قصّة أحيقار وحكمته.

وإنّ العلاقة بين عزرا[٤٨] وأحيقار ليست علاقة حكمة بل علاقة لغة فقط فإنّ عزرا كتب سفره باللغة الآراميّة البابليّة كما فعل دانيال النبيّ...

(٤٨) عزرا الكاتب، جاء في مقدّمة سفر عزرا - المطبعة الكاثوليكيّة، بيروت ١٩٦٠: في الجيل الخامس قبل الميلاد، كان نحميا من مقرّبي الملك فحصل منه على أوامر استثنائيّة تقضي بإصلاح أسوار المدينة المقدّسة... أمّا عمل عزرا الكاتب الذي نشر الشريعة الموسويّة بكلّ مضمونها أكثر أهمّيّة. لقد أصبح اسم عزرا ملازمًا لهذا التغيّر ولهذا عرف السفر باسمه أو باسم عزرا الكاتب وخاصّة سفري الثالث والرابع. وإنّ نوع التأليف مجموعة سفر عزرا، (عزرا) يشير إلى الذي جمعها كان يخدم في الهيكل وقد قام بعمله هذا في عهد بعد عهد عزرا.

ملحق النصّ الآراميّ

ننشر هنا النصّ الحكميّ لحكمة أحيقار،[1] وهو النصّ الآراميّ الذي اكتشفه الأثاريّون في جزيرة الفيلة بمصر بين عامي (١٩٠٦-١٩٠٧) والذي نشره المستشرق ساخو عام ١٩٠٨، وأعاد نشره مع دراسة مفصّلة عام ١٩١١. ويؤكّد الآثاريّون أنّه يعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد.

١ - مثل نهيق الحمار في الصحراء، كذلك الابن الذي يعلّم ويهذّب ثمّ يوضع القيد في رجله.

٢ - لا تمنع العصا عن ابنك إذ لا يمكنك إبعاده عن الشرّ.

٣ - إذا ضربتك يا ابني فلن تموت، وإذا تركتك تتبع قلبك فلن تحيا.

٤ - الضرب للعبد، والقمع للعبدة، والصرامة لجميع خدّامك.

٥ - الرجل الذي يشتري عبدًا أبقًا أو عبدة لصّة، فإنّه يجلب العارّ إلى بيته ويهين اسم أبيه وذرّيّته بعمله الشائن.

٦ - العقرب يجد الخبز فلا يأكله ليعيش به، فأحبّ إليه لو ذاقه فقط فيما إذا قدّم له.

٧ - الأسد يفترس الأيل وهو كامن في عرينه... و... ويسفك دمه ويأكل لحمه، هكذا هي معاشرة الناس...

٨ - الحمار الذي يترك حمله ولا يحمله، سيحمل عارًّا أمام رفيقه وسيحمل حملًا ليس له، وإن يحمل حمل جمل.

٩ - الحمار ينعطف للأتان وامقًا، والطيور (ربّما على أشكالها تقع).

١٠- كلمتان جميلتان، والثالثة يحبّها شماش، أن تشرب الخمرة وتسرّ بها فتصون حكمتك. وتسمع الكلمة فلا تشفيها فذلك عزيز لدى شماش. وأمّا مَن يشرب الخمرة ويفقد رشده فحكمته تفنى...

١١- إنّه عزيز لدى الآلهة، أيضًا وجود الملكوت هنا إلى الأبد، أنّها أسّست في السماء، لأنّ ربّ القدّيسين رفعها.

١٢- يا بنيّ لا تذع كلّ كلمة ولا تفش كلّ أمر يخطر لك، لأنّ في كلّ مكان عيونًا وآذانًا، فاحفظ لسانك مراقبًا ولا تدعه أن

---

(١) راجع النصّ الآراميّ الكامل لقصّة أحيقار في كتاب المطران غريغوريوس بولس بهنام، أحيقار الحكيم، ص ٩٤-١٠٩، بغداد، ١٩٧٦.

يدمّرك.

١٣- أعظم ما تراقب راقب فمك، واغلق قلبك على كلّ ما تسمع، لأنّ الكلمة هي كالطير، إذا أرسلتها فلن تستطيع اصطيادها ثانية.

١٤- إحص أقوال فمك، ثمّ أطلقها نصيحة لأخيك.

١٥- إنّ دمار الفمّ أشدّ خطرًا من دمار الحرب.

١٦- لا تستهن بكلمة الملك، دعها تكون شفاء لجسدك.

١٧- إنّ كلمة الملك ليّنة، لكنّها أمضى من سيف ذي حدّين.

١٨- أنظر أمامك حذرًا، إذا كنت بحضرة الملك، ولا تبطئ. إنّ غضب الملك صاعق كالبرق، فخذ الحيطة لنفسك، لا تدعه يصعقك به فتهلك قبل وقتك.

١٩- إذا صدعت بأمر الملك فأطعه حالًا، لأنّ غضب الملك كالنار فلا تتّشح بمسح وتعطي يديك، لأنّ كلمة الملك صادعة كغضب القلب. فلم يقاوم الخشب النار أو اللحم السكّين، أو الرجل الملك.

٢٠- إنّني ذقت الحنظل وكان طعمه مرًّا قاسيًا، ولكن لا يوجد أكثر مرارة من الفقر.

٢١- ناعم لسان الملك، ولكنّه يكسر أنياب الأفعوان كالموت الذي لا يرى.

٢٢- لا تدع قلبك يرتفع في مجمع الأطفال، ولا تخجل من نقائصهم.

٢٣- الملك ذو عطف، إلاّ أنّ صوته رهيب، فمَن يستطيع الوقوف أمامه إلاّ مَن كان الله معه.

٢٤- الملك مهيب عند رؤيته مثل شماش، وسلطانه ثمين جدًّا عند الذين يسيرون على الأرض بهدوء.

٢٥- الإناء السليم جميل لدى القلب، والإناء المكسور يطرح خارجًا.

٢٦- الأسد ذهب فقدّم التحيّة للحمار، فقال: السلام عليك، أجاب الحمار وقال للأسد...

٢٦- رفعت الرمل وحملت الملح فلم أجد شيئًا أثقل من الدَيْن.

٢٧- حملت التبن ورفعت النخالة، فلم أجد أخفّ من الضيف.

٢٨- الخصومة تعكّر الماء الصافي بين الأصدقاء الخلص.

٢٩- إذا نطق الصغير بأمور عظيمة فإنّ أقواله ترفع شأنه، فنطقه يرفعه لأنّه من الآلهة. وإذا كان محبوبًا لدى الآلهة فإنّها تمنحه ما ينطق به.

٣٠- إنّ نجوم السماء كثيرة لا يعرف الإنسان أسماءها، هكذا لا يعرف الإنسان جميع الناس.

٣١- لا يوجد أسد في البحر، لذلك سمّوا... أسدًا.

٣٢- التقى النمر بالعنزة وكانت مقرورة، فأجاب النمر وقال للعنزة: هلمّي وسأغطّيك بجلدي. قالت العنزة وأجابت للنمر: لئلاّ يؤخذ جلدي عنّي، دعني

وشأني. لأنّه (النمر) لا يحيّي الظبي إلاّ ليمتصّ دمّه.

٣٣- ذهب الذئب إلى الحملان وقال: أعطيني حملاً واحدًا وسأكتفي. فأجابته الحملان: خذ أيًا مِنّا تشاء، فإنّنا حملانك.

٣٤- ليس بمقدور البشر أن يرفعوا أقدامهم أو أن يضعوها بدون الآلهة.

٣٥- ليس بمقدورك أن تضع رجلك أو أن ترفعها، إذا طار صيتك على أفواه الناس صالحًا.

٣٦- وإذا تجنّوا عليك بالشرّ فإنّ الآلهة ستعاقبهم.

٣٧- إذا كانت أعين الآلهة على الإنسان، فإنّ الإنسان يرى طريقه في الظلام ولا يراه أحد كاللص الذي يقتحم البيت ويهرب.

٣٨- لا توتّر قوسك ولا تطلق سهمك على الصديق لئلاّ تفزع الآلهة لمساعدته فتردّ الضربة عليك.

٣٩- ... يا بنيّ، اجمع كلّ حصيدك ومارس عملك فستأكل أنت وتشبع وتعطي لأولادك.

٤٠- إذا وتّرت قوسك وأطلقت سهمك على ما هو أكثر بِرًّا منك فإنّ تلك خطيئة أمام الله.

٤١- .. يا بنيّ اقترض الذرة والقمح بقدر حاجتك فتأكل وتشبع وتعطي لأطفالك معك.

٤٢- لا تقترض من الشرّير، أنّ ذلك لحملًا ثقيلًا، فإذا فعلت لن تجد راحة لنفسك حتّى تلقى الحمل عن كاهلك، فالحمل لذيذ عند الحاجة إليه، ولكن إعادته لأصحابه تملأ البيت خيرًا.

٤٣- كلّ ما تسمعه يجب أن تتفحّصه بأذنيك، لأنّ جمال المرء بصدقه وبشاعته بكذب شفتيه.

٤٤- إذا كان العرش مؤسّسًا على الكذب، فإنّ الكذب سيشلّه أخيرًا، وسيبصق بوجهه.

٤٥- إنّ الكذّاب تقطع عنقه، مثل بنت الشمال التي تغطّي وجهها وتظهر عورتها، وكالرجل الذي يأتي الفرية ولا يخجل.

٤٦- الأمر الذي لا يصدر عن الآلهة لا تعمل به.

٤٧- لا تحتقر ما ليس من نصيبك، ولا تشته الشيء العظيم الممنوع عنك.

٤٨- لا تحاول زيادة الثروة، ولا توجّه قلبك إلى الضلال.

٤٩- مَن لا يفاخر باسم أبيه وأمّه، فليت الشمس لم تشرق عليه لأنّه رجل شرّير.

٥٠- العار إنّما ينبع عن ذاتي فمَن ذا سيبرّرني؟ فابن مهجتي تجسّس على بيتي فماذا أقول للغريب.

٥١- شاهد ظالم شهد ضدّي فمَن ذا سيزكيني؟

٥٢- إنّ الغضب انطلق من بيتي فضد مَن أكافح وأدافع؟

٥٣- لا تفشِ أسرارك لصديقك، لأنّ اسمك لن يبقى محترمًا لديه.

٥٤- لا تقاوم مَن هو أعلى منك منزلة.

٥٥- ولا تنافس مَن هو أقوى منك، لأنّه سيأخذ نصيبك ويضيفه إلى نصيبه. فانظر أنّ هذه حالة الضعيف مع القويّ.

٥٦- لا تعرض عن الحكمة.

٥٧- لا تكن محتالًا، ولا تدع حكمتك تنطفئ.

٥٨- لا تكن حلوًا لئلاّ يبتلعوك، لا تكن مرًّا لئلاّ يبصقوك.

٥٩- إذا رأيت، يا بنيّ، أن ترتفع فاتّضع أمام الله الذي يذلّ المتكبّر ويرفع المتواضع.

٦٠- كيف تستطيع شفاه الناس أن تلعن عندما الآلهة لا تلعن.

٦١- خير للإنسان أن يكبح غضبه.

٦٢- لا تسمح لنفسك أن تحب الشرّ.

٦٣- إنّ الله سيلجم فم الظالم وسيقطع لسانه.

٦٤- إنّ العيون الصالحة لن تظلم، والآذان الصالحة لن تصم، والفم الصالح سيحبّ الحقيقة وينطق بها.

٦٥- الرجل الرفيع الخلق الطيّب هو كالقوس القويّ الموتّر بيد رجل جبّار.

٦٦- إذا الرجل لم يسكن مع الآلهة فكيف ينجو بقوّته؟... والذي يسكن مع الآلهة فمَن ذا سيذلّه؟.

٦٧- إنّ الإنسان لا يعرف ما بقلب رفيقه، وإذا وجد الرجل الصالح رجلًا شرّيرًا فليحذره.

٦٨- الرجل الصالح لن يرافق الشرّير ولن يتعامل معه.

٦٩- أرسل العوسج إلى شجر الرمّان قائلًا: ما الفائدة من شوكك للذي يرغب جني ثمرك؟ أجاب شجر الرمّان العوسج قائلًا: إنّك كلّك شوك لمَن يلمسك.

٧٠- الصدّيق بين الناس، يعضده كلّ من يلقاه.

٧١- إنّ بيت الأشرار يدّك يوم الزوبعة، وفي اليوم الهادئ تسقط أبوابه لأنّهم ينهبون...

٧٢- إذا الرجل الشرّير قبض على تلابيب ثوبك فاتركه بين يديه، واتّصل بشماش فإنّه يأخذ ثوبه ويعطيك إيّاه.

٧٣- إنّ الله رفعني معك كرجل صدّيق فلماذا تضمر لي الشرّ؟

٧٤- إنّ أعدائي يموتون ولكن ليس بسيفي...

٧٥- إنّني صنتك في خدور الأرز ولكنّك رفضت البقاء فيها.

٧٦- إنّك تركت أصدقاءك وكرّمت أعدائي.

٧٧- ما أسوأ الرجل الذي لا يعرف ماذا يريد...

٧٨- الرجل الحكيم يتكلّم لأنّ نطقه عذب.

٧٩- إنّ السوس سطا على بيت من نحاس، لم ينل منه شيئًا.

٨٠- وتّر رجل قوسه ورمى بسهمه، ولكن لم يصب إلاّ نفسه.

٨١- إذا أعطاك ربّك ماء لتحفظه، لا تبدّده.

٨٢- العبد الذي قيّدت رجله بقيد، هو اللص الذي لا يحبّ أن يشرى.

٨٣- إنّ مَن يتذمَّر على ربّه سيذلّه ربّه في المحكمة...

٨٤- قال رجل لحمار بريّ، دعني أركبك وسأقدّم لك القوت... دع لنفسك قوتك وسرجك، ولن أرى ركوبك.

٨٥- لا تضع حصاة في رجلي بين اللحم والحذاء.

٨٦- لا يقل الغنيّ إنّي ممجّد بغناي.

٨٧- لا تري البدوي البحر، ولا للصيدوني الصحراء، لأنّ عملهما مختلف.

٨٨- إنّ الذي يعصر الخمرة هو الذي يذوقها...

٨٩- لا يشترين الرجل إلاّ امرأة متزوِّجة...

٩٠- لتشرى الخادمة كخادمة، وأمّا الزوجة...[2]

(٢) نكتفي بهذا القدر من النصّ الآراميّ الذي نشره العالِم الألمانيّ المشهور إ. زاخاو عام ١٩٠٨ بـ ١٢ لوحة يبلغ عدد سطورها ٢٢٣ سطرًا علمًا بأنّ هناك نصًّا آراميًّا آخر وردت فيه مقتطفات منها تمّ اكتشافه من قبل أو. روبنسون عام ١٩٠٦ في جزيرة سيناء بمصر حيث صارت ضمن أرشيف الفرق العسكريّة ويعود تاريخها إلى عام ٥١٥ق.م. (ماتفييف، حضارة ما بين النهرين العريقة - ص ٣١).

الخاتمة

إنّ خلاصة التجربة البابليّة في آداب الحكمة ووقائعها العمليّة في ما وصل إلى عصرنا كتابة أو رواية منسوبًا إلى الحكيم «أحيقار». وقد اشتهر هذا الحكيم في عدد من اللغات. وهو في الأساس آرامي، كان يعمل لدى الملك الأشوري سنحاريب (٧٠٥-٦٨١ق.م) كحامل لأختامه.

عرفه اليونان باسم «آخياكاريوس» والعبرانيّون باسم «ايقار» أو «عقيقار» وعرف بالعربيّة باسم «حيقار» وهو اشتهر في بلاط «نينوىٰ» ونسبت له قصّة هي أقرب إلى الروايات الشعبيّة التي تتزايد تفاصيلها مع تناقلها على الألسن[1].

إنّ أقدم نصوص القصص الآراميّ السريانيّ إطلاقًا، والتي وصلت إلينا، قصّة «أحيقار، كاتب الملك الأشوريّ سنحاريب وحامل أختامه». سجّلت بخطّ آراميّ على إحدى عشرة ورقة من البردي[2]، عثر عليها سنة ١٩٠٧م في جزيرة الفيلة قرب أسوان بمصر. وهي ترقى إلى القرن الخامس قبل الميلاد، ولا بدّ من أن تكون قد تعدّدت نسخها، وتباينت خطوطها ورواياتها. نقل بعضها إلى مكتبات الغرب فحظيت بدراسة المستشرقين، ومن أهمّها قيمة وأكملها رواية، مخطوطة جامعة كامبردج في بريطانيا التي نسخت بالخط الأسطرنجيلي في السنوات الأخيرة من القرن السابع عشر ومطلعها: «قصّة أحيقار الحكيم كاتب سنحاريب ملك أشور ونينوى» وعليها اعتمدنا في دراستنا هذه.

وهنا لا بدّ من التساؤل عن واضع القصّة، وعن تاريخ تأليفها ووضعها. هل هو أحيقار نفسه أم شخص آخر؟ هل كتبت القصّة في عهده أم في زمن لاحق؟ وهل الإنشاء فيها أصيل أم منحول؟ جاء في

(١) لقد انتهينا من وضع دراسة مفصّلة عن حكمة أحيقار وأثرها في الآداب العربيّة واليونانيّة والأرمنيّة والأوربيّة نحن بصدد نشرها قريبًا.

(٢) تحفظ بقايا ورق البردي التي هي بشكل لفائف بطول ٣٢-٣٣سم في مكتبة برلين بالرقمين ٦٣ و٦٤ وتتألّف اللفافة ذات الرقم ٦٣ من ٣٣ عمودًا. أمّا اللفافة ٦٤ فتضمّ بقايا عمود واحد فقط وفي كلّ سطر فيها يوجد من ٥٥ إلى ٥٨ حرفًا؟ (ماتفييف، المصدر السابق، ص ٣١).

وقت متأخِّر؟ هل حقًّا أنّ اسمه اسم علم حقيقيّ، أم صفة أطلقت على شخص واحد أم مجموعة أشخاص كرمز يختفي وراءه حركة ما أو هدف معيّن.

وهكذا نجد، كما أوضحنا في تضاعيف الكتاب، الأقوال والحكم التي تنسب لأحيقار الآراميّ، وريث فلسفة السلوك والتربية البابليّة، وسواء كانت له أم لغيره، فهي تمثّل طريقة التفكير والعمل في مواجهة المشاكل والصعوبات، وهي الطريقة التي كانت المثال لاتّباع الحضارة البابليّة (السومريّة - الأكديّة) طوال ما يزيد على ثلاثة آلاف عام. فتبرز لنا أهمّيّة حكمة أحيقار في التفكير الفلسفيّ لسائر شعوب المنطقة والتي انتقلت غربًا إلى اليونان عن طريق ديموقريطس الفيلسوف في القرن الخامس قبل الميلاد أي في عهد ازدهارهم الحضاري.

وإذا غادرنا ديموقريطس، وبقيّة الفلاسفة اليونان الذين استمدّوا حكمة أحيقار، نجد هذه الحكمة تنتقل كاملة في مجموعة ايسوب الذي يمكننا أن نطلق عليه اسم «أحيقار اليونانيّ» لأنّ أمثال أحيقار الآراميّ صريحة واضحة في تعاليمه ونشرت تحت عنوان «أسطورة أحيقار - النصّ اليونانيّ» الأمر الذي يؤيّد إن أوسيب نقلها بنصّها إلى اليونانيّة. وقد ظهرت بنصّها وروحها في اللغات الأخرى التي ترجمتها آدابها كالعربيّة والأرمنيّة واللاتينيّة.

أمّا في الأدب العبريّ - سيّما في أسفار الكتاب المقدّس - فقد أوضحنا بما أوردناه في نصوص البحث وبيّنا عمق التأثير والتأثّر، ومدى العلاقة بين نصّ حكمة أحيقار ونصوص الأسفار الحكميّة في الكتاب المقدّس كسفر الحكمة وسفر الجامعة وسفر يشوع بن سيراخ وطوبيّا... وغيرها وما اقتبسته من الحكمة الآراميّة والأشوريّة القديمة وبالتالي من مكوّنات حكمة وادي الرافدين السومريّة والأكديّة.

إنّ الهدف من نشر هذه النصوص، التي تتناول حكمة الإنسان بحسب تراث الشرق القديم (بلاد ما بين النهرين) هو المساهمة في فهم الفصول الحكميّة من الكتاب المقدّس، إنّها مساهمة محدودة، لكنّها فعليّة.

فقبل أن يصيغ العبرانيّون، في ضوء إيمانهم الخاصّ، تصوّرهم للحياة الاجتماعيّة، والعلاقات البشريّة، والفلسفة الفكريّة، اجتهدت ثقافات أخرى في تفسير هذه العلاقات والإجابة على أهمّ أسئلة الإنسان في حياته الاجتماعيّة، من خلال الإطار الأدبيّ للأسفار الحكميّة.

قد يعترض البعض على التقريب بين النصوص الكتابيّة والنصوص الأخرى قائلًا إنّ فلسطين لم تكن تستطيع أن تلمّ بهذه الكتابات التي صيغت في بلاد ما بين النهرين أو في مصر، ونجيب على هذا الاعتراض مكتفين ببعض المعطيات

الواقعيّة ففي مصر تمّ العثور على أقدم نصّ لحكمة أحيقار التي أوضحنا عنها أمورًا كثيرة.

ولقد غدا الكتاب المقدّس ولاسيّما العهد القديم منذ بضعة عقود في مركز اهتمام المثقّفين والكتّاب، فحضي بعدد متزايد من الدراسات والكتب. فنظرت إليه بعض هذه الكتابات عبر منظار الأحداث التاريخيّة الحديثة وشرحته في إطار غريب عنه. وعدّه بعضها الآخر كتابًا روحيًّا يحمل بشارة روحيّة تهمّ الإنسان بصفته إنسانًا. وأخيرًا قاربه فريق ثالث من الكتّاب من زاوية خصائصه الأدبيّة وعلاقاته بالثقافات الشرقيّة القديمة.

يشكّل محور قراءة الكتاب المقدّس، في هذا المنظار، البحث عن آثار ثقافات الشرق القديم في العهد القديم، لإظهار دورها المهمّ في تكوينه أدبيًّا وفكريًّا على حدّ سواء.

تتمتّع مسألة الاتّصالات الثقافيّة، التي تمّت بين تراث الكتاب المقدّس ودائرة الثقافات الشرقيّة القديمة، بأهمّيّة كبرى لفهم العهد القديم فهمًا صحيحًا وسليمًا.

لقد اكتشف دارسو ثقافات الشرق القديم منذ نيف وقرن أنّ الثقافات السومريّة والأكديّة والبابليّة والأشوريّة والكلديّة قد أسهمت إسهامًا هامًّا في تكوين آداب العهد القديم، وتشكّل بعض مفاهيمه ومقولاته وصياغة بضعة تصوّراته.

من هذا المنطلق، يطرح السؤال بإلحاح حول كيفيّة علاقات تراث الكتاب المقدّس وثقافات الشرق القديم، ولاسيّما ثقافات وادي الرافدين. فقد لقي هذا السؤال أجوبة مختلفة؛ فأثبت فريق من الباحثين أنّ الكتاب المقدّس ملفّق من عناصر ثقافيّة مقتبسة من الشرق القديم، ممّا حدا بهم إلى اعتباره «سرقة» و«نهبًا» أدبيّين.

لم يصمد هذا الرأي أمام النقد العلميّ الذي بيّن أصالة الخبرة الروحيّة التي ولّدت تراث العهد القديم وحافظت على هويّته الثقافيّة خلال قرابة ألف سنة: من ظهور التقاليد الشرعيّة الأولى في عهد موسى في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، إلى صياغة «كتب الشريعة الخمسة» التوراة النهائية على يد الكاهن عزرا في أوائل القرن الرابع قبل الميلاد.

غير أنّ فريقًا آخر من رجال الفكر المسيحيّ، وقفوا موقف الدفاع عن أصالة «الكتاب الموحىٰ» نافيًا نفيًا قاطعًا إمكانيّة تأثّره «بالثقافات الوثنيّة».

يمثّل هذان الجوابان موقفين متطرّفين، فهما لا يتعاملان مع الوقائع التاريخيّة تعاملًا موضوعيًّا، بل يقفان منها موقفًا مسبقًا يصطبغ بصبغة إيديولوجيّة أو لاهوتيّة.

أمّا رأينا فهو من باب البديهيّات التي تسلّم بأنّ الكتاب المقدّس - وخاصّة العهد القديم - تعامل مع محيطه الثقافيّ تعاملًا

فعّالًا، وأقام معه علاقات الأخذ والعطاء. وعليه فإنّ التراث الكتابيّ جزء لا يتجزّأ من التراث الإنسانيّ العامّ الذي تمثّل في الثقافات الشرقيّة القديمة. فقد أصبح السؤال إذًا على الشكل التالي:

ما هي نوعيّة العلاقات التي قامت بين التراث الكتابيّ والتراث الشرقيّ القديم؟

يأتينا الجواب عن هذا السؤال من البحث العلميّ الموضوعيّ والنظر النقديّ في المعطيات المحسوسة. ويشكّل إطار قراءة هذه المعطيات مفهوم «إعادة التأويل» وهو مفهوم قد بانت فاعليّته المنهجيّة وظهر خصبه النظريّ. فقد أضحى هذا المفهوم من المقولات الأساسيّة في العلوم الإنسانيّة التي تنصرف إلى دراسة الاتّصالات الثقافيّة في الماضي والحاضر. وعليه، فمن المشروع أن ننتهج هذا المفهوم في دراسة العلاقات الثقافيّة التي نشأت بين التراث الكتابيّ ومحيطه الثقافيّ سعيًا إلى تعميق فهم هذا القسم من تاريخ التراث الإنسانيّ.

وعليه فقد تناولنا في دراستنا هنا «أثر حكمة أحيقار في الكتاب المقدّس» وخاصّة في العهد القديم وبالأخص في الأسفار الحكميّة وبيّنا مدى الأثر والتأثّر في الاقتباس والقياس، ومن حسن الحظّ أن يكون طوبيّا البارّ أحد أنبياء العهد القديم، أقام مدّة في نينوى، حيث استمع ولا شكّ إلى أخبار أحيقار ونصائحه وإبداعاته الفكريّة التعجيزيّة، فجاء سفره على كثير من توارد الحكم والأمثال والمقاطع المقتبسة أو المتأثّرة من وفي حكمة أحيقار الآراميّ أصلًا؛ سيّما وقد ثبت أنّ هذا السفر قد وضع بالآراميّة في القرن الخامس قبل الميلاد، فمال النقّاد إلى جعل نصّ أحيقار الآراميّ معاصرًا له، أو سابقًا بقليل، ومال بعضهم إلى اعتبار طوبيّا قد أجرى نقلًا يهوديًّا لنصّ أحيقار، ونحن مع هذا الرأي سيّما ويعزّز ذلك ما عرف عن ديموقريطس الذي عاش في القرن نفسه، من أنّه أورد في «أخلاقيّاته» بعض ما جاء في كتاب أحيقار.

وقس على ذلك ما دوّن - فيما بعد - في عدد من أسفار العهد القديم كسفر دانيال، الذي عاش في عهد قريب من عهد أحيقار، وفي ظروف وبيئة شبيهة بظروفه وبيئته. وسفر يشوع بن سيراخ، أو سفر الحكمة الموضوع في منتصف القرن الثاني قبل الميلاد، وسفر الأمثال وسفر الجامعة وسواها من الأسفار؛ أثر حكمة أحيقار فيها واضحًا وجليًّا نصًّا أو معنى، حيث تتوارد في جميعها في التفكير والتأليف، في التركيب والتعبير، حتّى في اللفظ والترتيب. وهذا دليل على شواهد القدم في الشكل والأسلوب على نمط تلك الفقرات التي حفظتها الأسفار الكتابيّة في سفر عزرا وسفر نحميا، وعلى ما ردّده بعدهما سفر طوبيّا كما بيّنا في تضاعيف الكتاب.

ونختم قولنا، بأنّ «حكمة أحيقار» تعود إلى ما قبل المسيحيّة بقرون، وهذا أمر لا يشكّ فيه أحد ممّن درسوا القصّة،

وذلك لأنّ خبر أحيقار وحكمه وأقواله مبثوثة في الأدب الدينيّ السابق للمسيحيّة - كما بيّنا في فصول البحث - ولاسيّما الإشارة التي وردت في سفر طوبيّا (١٤: ١٠). ولا شكّ أيضًا - كما وضّحنا - الصلة وثيقة بين سفر دانيال وقصّة أحيقار، ناهيك عن الأمثال الواردة في أسفار العهد القديم والتي لها صدى في خبر أحيقار كما سردناها.

أمّا في العهد الجديد - وهذا لم نرغب في شرحه وبيانه خوف الإطالة والملل - فإنّ قصّة العبد الشرّير الوارد ذكرها في إنجيل لوقا (١٢: ٤١ وما يليه) وفي إنجيل متّى (٢٤: ٤٢ وما يليه) تكاد تكون قصّة نادان ابن أخت أحيقار. وفي رسالة بطرس الثانية (٢: ٢٢) نقرأ: «لقد أصابهم ما في المَثَل الصادق: «كلب عاد إلى قيئه وخنزيرة مغتسلة إلى التمرّغ في الحمأة». ويقول أحيقار لابن أخته نادان: «يا بنيّ أنت صرت مثل الخنزير الذي دخل الحمّام مع الأكابر، فلمّا خرج نظر حفرة سيان، نتنة فنزل تمرّغ فيها». وهو المَثَل الذي استشهد به بطرس الرسول.

وهكذا يكون قد قدّمنا ببحثنا المتواضع هذا، نماذج من الأقوال والحكم التي تنسب إلى أحيقار الآراميّ ومدى عمق تأثيرها على أسفار الكتاب المقدّس (العهد القديم) وريث فلسفة السلوك والتربية البابليّة - الأشوريّة. فهي تمثّل طريقة التفكير والعمل في مواجهة المشاكل والصعوبات، وهي الطريقة التي كانت المثال لاتّباع الحضارة البابليّة (السومريّة - الأكديّة) طوال ما يزيد على ثلاثة آلاف عام قبل ميلاد السيّد المسيح.

دير الشرفة حريصا - درعون
١٦ آذار ١٩٩٥

المصادر والمراجع

١- أبونا (الأب ألبير)؛ **أدب اللغة الآراميَّة**، بيروت، ١٩٧١.

٢- بهنام (المطران غريغوريوس بولس)؛ **أحيقار الحكيم**، بغداد، ١٩٧٦، مطبوعات مجمع اللغة السريانيَّة.

٣- الجادر (وليد)؛ «أهمّيّة دراسة التراث الفكريّ في حضارة وادي الرافدين»، مجلَّة **آفاق عربيَّة**، بغداد (١٩٨٦)، عدد ٧، ص ٦٦ وما بعدها.

٤- حبّي (الأب يوسف)؛ «أساطير وحكايات شعبيّة في حكمة أحيقار»، مجلَّة **التراث الشعبيّ**، بغداد.

٥- حبّي (الأب يوسف)؛ «حكمة أحيقار»، مجلَّة **آفاق عربيَّة**، بغداد (١٩٨٥).

٦- الحوراني (يوسف)؛ **جماليّات الحكمة في التراث الثقافيّ البابليّ**، بيروت، ١٩٩٤.

٧- دولباني (المطران يوحنّا)؛ **أحيقار الحكيم - النصّ السريانيّ**، طبعة ثانية، حلب، ١٩٦٢.

٨- السمعانيّ (يوسف سمعان)؛ **المكتبة الشرقيَّة**، المجلَّدان الثاني والثالث. وهو أوّل مَن نبَّه إلى قصّة أحيقار البابليّ.

٩- عيسى (الأب يوحنّا)؛ **إقرأ طوبيّا**، دار الكلمة، بيروت - لبنان، ١٩٧٥، سلسلة «كلام الله»، رقم ٢٢.

١٠- غبريال (فولوس)؛ **الآداب السريانيَّة**، «أعلام السريان»، بيروت، ١٩٦٩.

١١- غبريال (فولوس)؛ **اللغة السريانيَّة - الأدب والنحو**، الجزء الثالث، بيروت، ١٩٦٦.

١٢- فريحة (أنيس)؛ **حكيم من الشرق الأدنى القديم**، بيروت، ١٩٦٢.

١٣- فريحة (أنيس)؛ **دراسات في التاريخ**، الطبعة الأولى، طرابلس - لبنان، ١٩٩١، منشورات جرّوس برس.

١٤- قاشا (سهيل)؛ **الحكمة في وادي الرافدين**، بغداد، ١٩٨٣.

١٥- **قاموس الكتاب المقدَّس**، عدّة أجزاء، باللغتين الإنكليزيَّة والعربيَّة.
١٦- كار (إدوار)؛ **ما هو التاريخ**، ترجمة ماهر كيالي وبيار عقل، بيروت، ١٩٨٠.
١٧- **الكتاب المقدَّس (العهد القديم)**، طبعة الآباء اليسوعيّين، بيروت، ١٩٦٠.
والأسفار التي استعملناها: سفر أيّوب، طوبيّا، الأمثال، الجامعة، المزامير، عزرا، يشوع بن سيراخ، الحكمة، الملوك.
١٨- ماتڤيف (ك.)؛ **حضارة ما بين النهرين العريقة**، ترجمة د. حنّا آدم، دمشق، ١٩٩١.
١٩- **مجلَّة كلّيّة الآداب**، جامعة بغداد، عدد ٢٢، شباط ١٩٧٨، ص ٣٦٩-٣٧

فهرس المحتويات

منشورات :
دار المشرق ش م م
ص.ب: ٩٤٦ - بيروت، لبنان

صدر من سلسلة «دراسات في الكتاب المقدَّس»:

التوزيع :
المكتبة الشرقيّة - ساحة النجمة
ص.ب: ١٩٨٦ - بيروت، لبنان

جمعيات الكتاب المقدس في المشرق
ص.ب: ٧٤٧ - ١١ بيروت، لبنان